عنترة وعبلة بين الحقيقة والخيال

د. أحمد مُحَمَّد مشرف الحراحشة
أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية
جامعة آل البيت/ الأردن

ملخص:

عنترة بن شداد؛ ابن زبيبة بقي عبداً لا يملك نفسه أكثر من أربعين عاماً، حتى أعتقه شدَّاد فنسب إليه تحت طائلة الحاجة لسيفه، أكدَّ وجوده الرسول (ﷺ) بقوله : ما ذُكِرَ لي جاهليّ قط وأحببت أن أراه إلاَّ عنترة، وذكره أصحابه ممن أدركوا الإسلام، وأشهره شعره المروي عبر الرواة الثقات.

أمَّا عبلة فلم يذكرها أحدٌ من الناس الذين أدكوا الإسلام وهم كُثر ، ولم يُعرف لها نسب من ناحية أمّها، ولم يُعرف لها نسب صريح من ناحية أبيها، ولم يُعرف لها نهاية ؛ نهاية حياة أو نهاية حب ، ولم تذكر الروايات الموثقة قصة زواجها بعنترة أو بغيره ، ولم تُعرف لها حياة اجتماعيَّة بعد الزواج ، وهل أنجبت ؟ أو بقي لها عقب!

تتغيا هذه الدراسة عبر توظيف المنهج الهرومنيوطيقي، إلى إثبات أنَّ عبلة لم تكن فتاة عبسيَّة كما ركز في الثقافة العربيَّة لمدة ألف وأربعمة سنة ، وإنَّما هي من ابتداع الشعرية والفن، استعارها الشاعر كمشبه به و المشبة هو همُّ الشاعر الذي أرَّقه، ورمض نفسه، فاستدر منه القول، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية .

كلمات مفتاحية:

المنهج الهيرمنيوطيقى، مقام القصيدة ، مواضعات اجتماعية، داحس والغبراء، عبس وذبيان .

Abstract

Antarah, the son of the slave-woman 'Zabiba', remained a slave for more than forty years until he gained his freedom by Shaddad who claimed the former as his son to make use of his sword in warships. The reality of -Antarah is confirmed in history as the Prophet Mohammed has once said that there is no-one from the pre-Islamic period whom he wish to meet as Antarah. In addition, Antarah's companions who embraced Islam have talked about him, and they recited his confirmed poetry.

On the other hand, nobody among the many who embraced Islam recalls Abla, and her lineage from her mother's side is unknown, and the one from her father's side is not lucid. Her end is a mystery; the end of her love to Antarah and her death. In addition, verified narrations do not mention her marriage to Antarah or to anybody else, and there is no accounts about her social life after marriage; as we do not know if she had children or not.

This study aims to employs the hermeneutic method to prove that Abla was not a girl from Abs tribe as it has allegedly believed in Arabic culture for more than fourteen centuries. Instead, it argues that it is an allegory that represents the poet's passions and concerns and by which he metaphorically refer to by using Abla as his muse.

Keywords: *hermeneutic method, the poem standpoint, social context, Dahes and Ghabra', Abs and Dheebaan*

تمهيد:

مثلما كان الأدب مرآة عصره، فالنقد مرآة عصره أيضاً، ومن الصعب أن نفرض قراءة وحيدة للنص الأدبي العميق، ونسحبها على كل العصور، فكلُّ قراءة هي رؤية عصرها، تُبيْنُ إمكانات النقاد والمفسرين في ذلك العصر، وتجلّي رؤيتهم للأدب، وعلاقته بالحياة .

ولا شك إنَّ قراءة النصوص القديمة، قراءة متأنية وتأمليَّة، ليست اجتراراً، ولا محاولة محسومة النتائج وضئيلة الفائدة ؛ فقد تكون ذات جدوى في تقديم رؤية جديدة ، أو تسليط الضوء على زوايا أهملتها الدراسات السابقة، وربَّما أضحت ضرورة حتميَّة؛ نظراً لاختلاف الرؤى والمعلومات، والإمكانات البحثيَّة بين عصر المفسرين، والعصور التي تلتها إلى عصرنا الحاضر.

لقد اكتفت الدراسات السابقة بالنظر الموضوعي الصرف للقصيدة التراثية العربية، وخرجت بقرارها العقيم، الذي أكد واقعية القصيدة التراثية، وبساطتها الفكرية، والفنية، والنفسية [1].

إنَّ الدِّراسات الحديثة التي اعتمدت المنهج الهيرمنيوطيقي، توصلت إلى نتائج بالغة الأهمية، وكشفت حقائق تاريخيَّة [2]، وفنية كبرى تباينت مع الموروث النقدي العربي في عصور الجاهليَّة وصدر الإسلام، والأموي إلى مطلع العباسي؛ وذلك لأنَّه لم يكن ما بين أيدينا اليوم من علوم الحفريات، والاجتماع، واللغات السامية المقارنة، وعلم النفس، وأسس الإبداع الفني ما كان لدى المشتغلين بالأدب قديماً[3].

وبقدر ما يكون العمل الأدبي عميقاً، يكون مفتوحاً أكثر لتقبل قراءات جديدة، ويتجلى باحتمالات جديدة للمعاني، بحيث يعطي كلَ قارئ للعمل بعداً يتفق مع مستوى قدراته الثقافية، ومن هنا تأتي النصوص التي يتفق الناس على وصفها بالجودة ؛ لأنها استطاعت أن ترضي كلَّ واحد منهم، بأن تمنح نفسها له ؛ كي يكتب نهايتها، أو يفسرها حسب مستواه الثقافي والفني[4].

والنص الجيد لا تتوقف معانية عند حد، وإنَّما يستمر في حركة دائبة بينه وبين متلقيه على مرّ الأجيال، وما بين النقاد أنفسهم على اختلاف عصورهم، ومذاهبهم الدينيَّة، وقدراتهم الثقافيَّة؛ لأنَّ لغة الشَّعر لغة تخرج عمَّا ألفه الناس، فلغته

أصلية أوليَّة[5]، غير منضبطة بحدود المعاجم، وما هو متداول منها في عصر من العصور؛ فصور الشاعر الغريبة التي تطلع عليه ليست بالضرورة في خبرته ولا يستمدها من عصره فقط، وإنَّما بمقدوره استباحة كلِّ صور البشرية بمختلف أطوارها، وثقافاتها، وتوظيفها في نصه الأدبي، مترجمة إلى صور لفظية يطلع عليها الآخرون.

عنترة بن عمرو بن شدَّاد بن قراد بن مخزوم بن عبس بن بغيض من أهل نجد، أُمُّه أمَة حبشيَّة سوداء، تدعى زبيبة ، عنترة كان فارس بني عبس في حرب داحس والغبراء بدون منازع، وشاعرها ، والمدافع عنها بسيفه ولسانه ، أكدَّ وجوده الرسول (ﷺ) بقوله : ما ذكر لي جاهليّ قط وأحببت أن أراه إلاَّ عنترة [6].

وذكره أصحابه ممن أدركوا الإسلام كالحطيئة، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وذكرته أيام العرب، وأشهره بين الناس شعره المروي عبر الرواة الثقات كالأصمعي وأبي سعيد السكري والشنتمري وغيرهم.

أمَّا عبلة فلم يذكرها أحدٌ من الناس الذين أدكوا الإسلام وهم كثر، ولم يُعرف لها نسب من ناحية أمِّها، ولم يُعرف لها نسب صريح من ناحية أبيها، وليس لأبيها الذين دعوه "مالك بن قراد " ذكرٌ في أيام داحس والغبراء، ولم يُعرف لها أخوة شاركوا في هذه الحرب ، ولم يُعرف لها نهاية ؛ نهاية حياة أو نهاية حب ، ولم تذكر الروايات الموثقة قصة زواجها بعنترة أو غيره ، ولم تُعرف لها حياة اجتماعيَّة بعد الزواج ، وهل أنجبت ؟ أو بقي لها عقب؟

مسوغات البحث :

إنَّ من المستهجنات الاجتماعية في المجتمع القبلي العربي، ومن أشدِّ المعيبات والمناقص أنْ تعشق فتاة حرَّة من بنات القبائل العربيَّة ذات الشرف والأنفة والكبرياء عبداً من عبيد قومها لا يملك نفسهً، وإنَّ هذا الأمر المشين لو وقع في

قبيلة عربيَّة لكان أوسع باباً للهجاء وأشدّه وقعاً على رجالها، أهل الغيرة الشديدة على النِّساء، وقصص الغيرة مشهورة عند العرب؛ حتى بعد الإسلام حيث روي عن سعد بن أبي وقاص(ﷺ) أنَّه عقر الفرس التي حملت زوجته؛ غيرةً منه حتى لا يركبها رجل مكانها بعد ذلك.

وإنَّ المرأة العربيَّة ليست شخصاً إرهابياً يعشق الدماء، والقتل كما يظهر لنا من شعر عنترة الذي يخاطب به عبلة، حيث يمعن في القتل والتمثيل في أعدائه الأحرار دون العبيد، وتجاوزه الحدَّ في حبِّ إراقة الدماء والتمثيل بالقتلى، بذكر التفصيلات المرعبة أمامها، فلم ينظم قصيدة ذكر فيها فروسيته وقتله الشديد للأحرار إلاَّ وخاطب بها عبلة، وكل ذلك لتقبله حبيباً وترضى عنه، كما يرى الآخرون .

ألا تملُّ عبلة صور الدماء والقتل والأشلاء التي تشيب لها الولدان ! كما يقول في كلِّ مقطوعة، فهل عبلة امرأة عربيَّة تتصف بكل هذه القسوة والشراسة التي تجاوزت كل حدٍّ معقول !؟

فرضيات البحث :

عبلة ليست من النِّساء في شيء، ولا يوجد في بني عبس فتاة بهذا الاسم ولا في غيرها من القبائل العربيَّة في الجاهليَّة، يمكن أن تكون هي معشوقة عنترة، والعرب لا يطلقون على بناتهم أسماء تشي بالجمال والميعة، فمعنى عبلة "البيضاء" وذلك صيانة لهن وحرصاً عليهن من ذؤبان الرجال، ولم يكن عنترة في يوم من الأيام خارجاً عن قيم قبيلته العربيَّة في ذكر اسم من يحب، وإفشاء أسرار المحبوب، وذكر أوصافه الحسيَّة في الشعر، ولم يكن عاشقاً في يوم من أيَّامه إلاَّ الحريَّة، وإنَّما كان فارساً يعشق السيوف والرماح وحب القتل الذريع منتقماً من أعدائه الأحرار لتحقيق

هدفه في العتق والتحرر ونزع رداء العبوديَّة، فضلا عن ذلك، لم يكن مؤهلاً للحب والعشق والصَّبابة، فلم يكن حراً مالكاً لنفسه، إنّما كان عبداً مملوكاً لسيّده لمدة تجاوزت الأربعين سنة، حيث أعتقه سيُّده شدَّاد ونسبه إليه بعد ذلك، وأعطاه النسب فقط، ولم يعطه حق الزواج من حرَّة أو نصيب الأحرار في الغنائم، وكان باسل الوجه ولم يكن جميلاً وسيماً، إنّما كان شجاعاً، كريماً، وصاحب خلق عالٍ وحياء وعفَّة .

إنَّ القيم القبليَّة تجاه النَّساء المتمثلة بالغيرة على الأعراض، كانت قويَّة عند العرب في المجتمع الجاهلي، فلا يمكن لقبيلة عبس وهي أحدى جمرات العرب أن تقبل مثل هذا العشق وقصصه أن تحدث بين عبد أسود يفتقر إلى الأهليَّة السياديَّة وفتاة جميلة من بنات القبيلة، ولن تكسر قيم المجتمع الجاهلي فتساوي بين السادة والعبيد، أو تسمح بمثل هذا الزواج غير المتكافئ، كما هو الحال عند كل القبائل العربية، في ضوء ما عرف من ثوابت الغيرة على النِّساء عند رجال العرب، وما امتازوا به من العزّة والأنفة والخيلاء في ذلك الزمان.

الحياة الاجتماعيَّة عند العرب:

أسماء النِّساء عند العرب :

فقد خضعت أسماء النَّساء لمواضعات البيئة العربيَّة الصحراويَّة في الجاهليَّة، وكانت تلعب دوراً في حصانة المرأة وحمايتها من ذؤبان الرجال في مجتمع ذكوري خشن ، عُرِفَ بالكبت الجنسي، وحرم فيه الشباب التنفيس من حمى الشهوة؛ لذلك كان الخوف شديداً ومبرراً على النِّساء؛ والمرأة أعظم غنيمة الرجل وعقيلة ماله، وهم ما بين حلٍّ وترحال، لا حمى لهم سوى السيف والخيل فهم أهل وبر لا أهل حصون تمنع نساءهم من السبي والخطف.

في ظـل هـذه الأوضـاع المعيشـيَّة والاجتماعيَّـة والقيميَّـة، ابتعـد العـرب عـن إطلاق أسماء على بناهم تشي بالجمال والرِّقة والنعومة والميعة، وحاولوا أن تحمل أسماؤهن معاني نفسيَّة وعقليَّة لا جسديَّة؛ كالعند والحدَّة والفصل والمنعة والحكمة والعقل؛ فكانت أسماء بناتهم نحو: هند وعنود وفصل والخنساء وشعثاء وفاطمة ورابعة وأروى وقتيلة وأمامه وسلمى، وغير ذلك من الأسماء التي تمنع خيال السامع من الرجال من التلذُّذ بموحيات الاسم وصفات صاحبته المتخيَّلة؛ خوفاً عليهن من حوف بيوتهن من قبل الرجال الطامعين بإدراك الطلب، أو التربص بهن على المفارق والعيون، وأكناف البيوت ومصاطب الكثبان، فمن ذا الذي يسمي ابنته "عبلة : البيضاء" في مجتمع يغلب السواد على كل شيء فيه !.

الغيرة الشديدة على النِّساء :

لقد كان العرب في الجاهلية يعدّون المرأة ذروة شرفهم، وعنوان كرامتهم، ولذلك فقد تفننوا في حمايتها والمحافظة عليها، والدفاع عنها زوجة وأُمَّاً، ابنةً وأختاً، قريبةً وجارة، حتى يظل شرفهم سليماً من الدَّنس، ويبقى عرضهم بعيداً عن أنْ يمس. ولم يكن شيء يثير القوم كالاعتداء على نسائهم أو المساس بهنّ، ولذلك كانوا يتجشمون في الدفاع عنهنّ كلَّ صعب، لقد كانت الغيرة تولد مع القوم وكأنَّهم رضعوها فعلاً مع لبان الأُمَّهات:

قال عنترة بن شداد :

وَنَحْنُ مَنَعْنَا بالفَروقِ نساءَنا   نُطَرِّفُ عنها مُشْعِلَاتٍ غَواشِيا

أبَيْنَا أبَيْنَا أنْ تَضِبَ لِثاتُكُمْ   على مُرْشِفاتٍ كالظِّباءِ عواطِيا(7)

وقال عنترة أيضاً :

وَنَحْفَظُ عَوْراتِ النَّساء وَنَتَّقِي   عَلَيْهِنَّ أنْ يَلْقَيْنَ يَوْماً مَخازِيا(8)

والعفَّة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم، وكان العرب أغيَرَ النَّاس على أعراضهم؛ لأنهم أشدُّ الناس حاجة إلى حفظ الأنساب، ولذلك قيل: كلُّ أُمَّةٍ وُضعت الغيرة في رجالها، وُضعت الصيانة في نسائها. وقد وصل العرب في الغيرة أنْ جاوزوا الحد، حتى كانوا يئدون بناتهم مخافة لحوق العار بهم من أجلهنّ .

وكانوا يفخرون بغض البصر عن الجارات، ويعتبرون ذلك من العفَّة والغيرة على الأعراض، وما أجمل قول عروة ابن الورد:

وإنْ جارتي ألوتْ رياحٌ ببيتها تغافلتُ حتى يَسترَ البيتَ جانبُه[9]

وقال حاتم الطائي :

وَمَا ضَرَّ جاراً يا ابنة القَومِ فَأعْلمي يُجاوِرُني إلا أكـــونَ لَهُ سِترُ
بِعَيْنَيَّ عَنْ جَـــاراتِ بيتي غَفلةٌ وَفي السَّمعِ مِنِّي عَنْ حَدِيثِهمُ وَقْرُ[10]

وقال أيضاً :

إذا ما بتُّ أختلُ عرسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيتُ
أأفضحُ جارتي وأخونُ جاري معاذَ الله أفعلُ ما حَييتُ[11]

وقول عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها[12]

فئات الناس في القبيلة العربية:

إنَّ عنايَّة العرب بمعرفة أنسابهم، فاقت عناية الأمم جميعاً، فالعرب بحكم تكوينهم القبلي أبدو اهتماماً بالغاً بسلاسل الأنساب، فكان أبناء القبيلة الواحدة يحفظون أنسابهم، ويروونها متصلة إلى أعماق العصر الجاهلي حتى تصل إلى الجذم الأول عدنان أو قحطان؛ وذلك راجع لحاجتهم إلى التناصر بالعصبيَّة [13]، وليس

أحـد مـن العـرب إلا ويسـمى آباءه أبا فـأبا، حـاطوا بـذلك أحسـابهم، وحفظـوا بـه أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، وإنْ ادعى لغير أبيه، فهو مغموز النسب دعيٌّ .

أولاً: العـرب الصـرحاء ؛ أبناؤهـا: هـم ذوو الـدم النقـي، الـذين لا تشـوبهم شائبة، انحدروا جميعاً من أب واحد، يربط بين هولاء الدم والنسب، وهم الخيار فيها والشرف، تتمثل بكل فرد منهم محاسن الأخلاق كالشجاعة و الكرم والحلم والعفَّة، متصـفاً فيهـا ومتمسـكاً بأهـدابها لا يحيـد عنهـا حتى لـو كـان دمـه الـثمن، ومتوقيـاً لمساوئها كالبخل والجبن والغدر والنذالة والخسّة.

وهـم الطبقـة العليـا الممتـازة في القبيلـة، وعمادهـا في الحـرب والسـلم، وفـيهم الرياسة والشرف والعصبيَّة، وقيادة الجيش، وحاملو الألوية، ومنهم أصحاب الرأي والحكمـة والمشـورة والحـل والـربط والتفـاوض، وهـم أهـل الفصـاحة والشـعر والبيـان، ومنهم يتكون مجلس القبيلة ـ الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب، ولا يكون شيخ القبيلة إلا منهم متصفاً برجاحة العقل، وكرم الأخلاق، وعظيم الثروة، وقوة العصبيَّة، حليمـاً كبـير القلـب في تعاملـه مـع أبنـاء قبيلتـه يحـترم الكبـير ويعطـف علـى الصـغير والفقير والمحتاج، له من المكانة والقوة الشخصية ما يجعله يفرض رأيه على بقية أفراد قبيلته[14].

ثانياً: الموالي، وهم أرفع طبقة من العبيد أو الأرقاء، فالمولى عبد أعتقه سيده فأصبح حراً، له ما للأحرار وعليه ما عليهم، لكنه يظل مرتبطاً بسيده القديم برابطة الـولاء، والمـولى لا يشـترى ولا يبـاع كالعبـد، ولكـن لا يبـاح لـه أن يتـزوج حـرة، وديتـه نصف دية الحر[15]، ويدخل في الموالي الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها؛ لكثرة جرائرهم وجناياتهم. وكانوا يعلنون هذا الخلع على رءوس الأشهاد في أسواقهم

ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق الموالاة في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها مثله مثل أبنائها.
ثالثا: العبيد المسترقّون، وهم في الغالب أسرى الحروب والغارات، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة، فالعبد إنسان محروم من الأهلية، مملوك لغيره، يتصرف به سيُّده تصرفه بملكه، فله الحق أن يستخدمه في أحط الأعمال أو يؤجره أو يرهنه أو يبيعه أو يهبه، وله أنْ يضربه أو يقتله أو يمثل به[16] وهم عبارة عن سلعة من سلع السوق ، تباع وتشترى كما تباع وتشترى أية سلعة أُخرى، وهم أدنى منزلة في المجتمع، لا تتجاوز مكانتهم قيمة الحيوان في كونهم مخلوقات حية مملوكة لغيرها، وليس لهم في هذه الحياة حريَّة ولا رأي ولا اختيار، فقدت حريتها بالعبودية، وصارت ملك سيِّدها، هي وما تنتجه ملك لمالكها، ويدخل في ذلك نسلها إلى الأبد، إلا إذا أُعتق العبد منهم فيصير حراً هو ونسله بعد ذلك[17].

وكان لا يمكن للعربي أنْ يقبل بتزويج ابنته من أحد العبيد أو العتقاء أو حتى من العجم الأحرار مهما تبلغ درجته من الرفعة[18]، والحال بالنسبة لعنترة لا يتجاوز ذلك؛ بل أحطُّ من ذلك لسواده، و ضِعَةِ أُمِّه زبيبة؛ ومع أنّ عمرًا لم يعترف بعنترة من الناحية الحقوقية؛ مثل الحق بالزواج من عربية، والحق بنصيب من الغنائم، وغير ذلك من الحقوق التي يتمتع بها الحر، فإنّ عنترة كان عَبْسيًّا في النَّسب، ذلك لأنّ القيم الجاهليّة تنسب الولد للأب وحده، أمّا الأمّ فكانت عند الجاهليين حاضنة،لا تعطي ولدها نسبها، وإنّما تشوبه و تغمزه[19]. والقين والعبد مشهور بالكذب والخسَّة في نظر العرب[20] وكانوا يتهاجون بخصال العبيد والرقيق للإشارة إلى انحطاط مكانة المهجو، ومكانة آبائه[21]:

قال المقنع الكندي :

وإنّي لعبدُ الضَّيفِ ما دَامَ نازلاً وليس لي شيمةٌ غيرها تشبهُ العبدا[22]

حرب داحس والغبراء :

لم تنشب حرب داحس والغبراء بسبب قيمة الرهان على سباق خيل لقيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر الفزاري الذبياني، ولكن سبب هذه الحرب الحقيقي هو رفض الضيم وعدم قبول المذلة في حكم حذيفة المجانف للحق في نتيجة السباق، بعدما تبين الخديعة التي دبرها حذيفة ووقع بها داحس، فجاءت الغبراء سابقة، وظهر للناس بغي حذيفة وظلمه، ولجّوجه بعد ذلك في طلب الرهان، فكان ابنه ندبه أول قتيل سقط في هذه الحرب، وكان ذلك حوالي سنة 564م ميلادي حسب الروايات التي ذكرت بأن يوم جبلة حدث بعد بداية الحرب بست سنوات[23]، ووقعت أحداثه سنة 570 ميلادي في عام الفيل، العام الذي ولد فيه نبي الهدى مُحَمَّد(ﷺ)، أي وقع قبل الإسلام بأربعين سنة ، وليس كما قال أبو عبيدة: إنه وقع قبل الإسلام بتسع وخمسين سنة[24]، وما تمحَّل أبي عبيدة في هذا التأريخ إلاَّ مواطأة للقول الذي يقول إنَّ الحرب استمرت 40 سنة.

وفي العام الذي بدأت فيه الحرب بعد مقتل ندبة بن حذيفة بن بدر الفزاري، قُتِلَ أخو قيس، مالك بن زهير،أخذاً بثأر ندبة، وكان متزوجاً في فزارة ونازلاً فيهم مطمئناً بينهم، ولكن حذيفة بن بدر لم يرعَ مصاهرته لهم، فأرسل إليه من يقتله، فاشتد الأمر بين الطرفين، ورثاه عنترة بقوله:

فللَّه عَيْناً مَنْ رأى مِثلَ مَـالكٍ عَقيرةِ قومٍ إنْ جرى فَرسَانِ

فَليْتهما لَمَ يَطْعما الدَّهر بعْدما ولَيْتهما لم يُجْمَعا لِـرِهَـانِ

فإذا وافقنا على تأريخ يوم شعب جبلة، وهو تاريخ ارتبط بمولد سيد البشرية مُحَمَّد(ﷺ)، فنسبة الخطأ فيه قليلة جداً، فيكون السباق قد وقع سنة 564 م، واستمرت الحرب عشرين عاماً، إي إلى عام 585م، عام الصلح، حيث رفضت

عبس مساندة ضبة في حربها مع تميم، ودارت بينما حربان يوم النسار ويوم الجفار، وكان يوم الجفار قبل مبعث الرسول (ﷺ)، بسبع وعشرين سنة[25]، أي عام 583م، ثم أرادت ضبة أن تنتقم من عبس، وانقلبت عليها، ووقعت بيهما وقعة ذات الرمث شمال آثال، واستمرت مناوشات عبس معهم لمدة عامين، بعدها ملت عبس الحرب وقصدت ديارها عند ذبيان ووقع الصلح بعد ذلك، وإذ أقف مع الراي القائل: إنَّ الحرب قد استمرت عشرين عاماً فقط متقدماً بالمرجحات الآتية:

أولاً : تعدُّ معلقة زهير بن أبي سلمى وثيقة من وثائق الصلح بين عبس وذبيان باقية بين أيدينا إلى الآن، حيث ألمح زهير بن أبي سلمى في المعلقة إلى أنَّ عمر الحرب عشرين عاماً، وأنَّه لم يستطع أنْ يقف بديار عبس وذبيان من عشرين سنة ، وكان من الصعب عليه تَبَيُّنُ معالمها لما أحدثه الحرب من أضرار؛ بقوله:

وقفت بها من بعد عشرين حِجةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّم

وفي مطلع المعلقة يقرّع عبس وذبيان على الحرب وإطالتها، والتي كان غدر حذيفة في السباق سببها الرئيس، والغدر المتكرر كان سبباً في إطالتها هذه المدَّة، وكان أول شرط من شروط الصلح وقف غدر حصن بن حذيفة والتزام الطرفين بالعهود؛ وأنْ لا يغدر طرف بالطرف الآخر؛ خشية أنْ تعود الحرب مرة أخرى، حيث يقول:

أمِنْ أُمِّ أوفى دمنةٌ لم تَكلَّم بحومانة الدَّراج فالمتثلِّم

فهو يستهجن مؤنباً عبس وذبيان على الغدر وعدم الوفاء ويريد أنْ يَحْمِلَهُم إلى ماضي عهدهم؛ عهد الوفاء والمحبة والأُلفة، فقال متسائلا: هل هذه الأرض التي عرفناها فيما سبق أرض الوفاء!، ما الذي غيَّرها، فأصبحت أرضاً للغدر، وسوحاً

للمعارك، وتحويم الخيل والجراح والأشلاء، ثم بعد ذلك يرى إنَّ بالإمكان إصلاح كلَّ شيء، بقوله:

أثافيَّ سُفْعًا في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤياً كَجِذْمِ الحوضِ لم يَتَثلَّمِ

فقد رمز لكرم عبس وذبيان أيام الوفاء والأُلفة بالأثافي السُّفع في موقد النار، وأن هناك إمكانية لإعادة إصلاح النؤي الذي مازال لم يتثلم كله.

وبدأ يرسم لهم حياة السلم الجميلة في لوحة الظعائن، وينفِّرهم من الحرب في لوحة الحرب، ونجحت هذه القصيدة في إتمام الصلح وإدامته.

ثانياً: قول الربيع بن زياد يوم الصلح عندما رأى حصين بن ضمضم: "ما لي عهد بحصين منذ عشرين سنة"[26]، مشيراً إلى عمر القطيعة بينهم، وهي عمر الحرب، وقد أضمر الأخير الغدر للأخذ بثأر أبيه ضمضم المرّي الذي قُتِلَ في يوم ذي المريقب وأخيه هرم يوم اليعمرية، وقتلهما عنترة، وقد فعل، ولكن سرعان ما حُلتْ نتيجة غدره ، بعد أن كادت الرماح أنْ تشتجر مرة أُخرى يوم الصلح.

ثالثا: إنّ أربعين سنة، زمن طويل يأكل عمر الإنسان، فمن يدخل حرباً وهو في سن الرجولة استمرت أربعين سنة لا يخرج منه إلاَّ كهلاً في أرذل العمر، لا يقوى على شيء، ولكننا نجد رجالاً دخلوا الحرب وهم في سن الرجولة كقيس بن زهير، وكان رجلاً شيخاً على عبس، داهية ذا رأي سديد، وخرج بعد الصلح على وجهه وأصهر إلى النمر بن قاسط، وتزوج فيهم وأنجب أبناءً منهم فضالة بن قيس الذي وفد مع قومه على النبي (ﷺ)[27]، ثم بعد النمر بن قاسط خرج إلى عمان إلى أن قُتل فيها سنة 632م[28]، ومنهم عنترة توفي سنة 615 ميلادي بعد الصلح بثلاثين عاماً، وكان بطلها لآخر يوم فيها، ومنهم الحطيئة، توفي سنة 59 للهجرة، ومنهم عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي عاصر عنترة وقاتله، توفي بعد معركة

القادسية سنة 21 للهجرة، وعامر بن الطفيل الذي أدرك الإسلام ووفد مع قومة إلى النبي(ﷺ) في المدينة، ومات في عودته مع أربد بن قيس بدعوة مُحَمَّد (ﷺ) عليهما.

عنترة بن شداد ناشد الحرية البيضاء وليس غيرها:

إنّ عنترة لم يعترف به أبوه شدَّاد صغيراً ولم يكن يُنسب إلى شداد قبل ذلك وهو عبد منسوب إلى أُمِّه الحبشية زبيبة، واعترف به بعد أنْ كَبُرَ[29]، فَنُسِبَ إليه، وقد تجاوز سن الأربعين، كما أومأ إلى ذلك في المعلقة في ضوء باب الاتساع[30]:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلوبَة سوداً كخافيةِ الغُرابِ الأسحَم[31]

وكان شداد هو سيَّده ومالكه يضربه صغيراً وشاباً، ورجلاً فارساً وشاعراً عندما يطالب بحريته، يقول عنترة :

المالُ مالُكمُ والعبدُ عبدُكُمُ فهل عذابُكَ عنّي اليومَ مصروفُ[32]

ولا مشاحة في محاولة المحدثين تحديد تاريخ ولادة عنترة إذ قيل أنَّه ولد سنة 520[33] وتُخَمَّنُ على وجه التقريب دون تحديدٍ صارم بين 520 م-530 م[34]. وأؤيد هذا التخمين؛ لأن عنترة نظم معلقته بعد يوم شعب جبلة الذي وقع سنة 570 م؛ لِذِكْرِه أسماء رجال في المعلقة شاركوا في ذلك اليوم، مثل عمرو بن عمرو بن عدس، الذي ولى هاربا، ولم يطارده عنترة تكرماً، وكان بمقدوره مطاردته وقتله أو أسره، و لجَّ عمرو بعد نجاته بهجاء عنترة، ولم يُقَدِّر جميلَه وإنعامَه عليه بالحياة، فقال عنترة :

نُبِّئتُ عَمْراً غَيرَ شاكِرِ نِعْمتي والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لنفس المنْعِمِ

وكان عمر عنترة آنذاك اثنين وأربعين عاماً؛ كما مرّ بنا في صفحات الحاشيتين 31 و 32، فيكون مولده عام 528 م على وجه التقريب، أمّا وفاته فقد

ذكر صاحب الأعلام أن وفاته كانت في عام 600م وهو ما يوازي العام الثاني والعشرين قبل الهجرة[35]، ويرى فليب حتي أنّ وفاته كانت في عام 615م[36] ويرى ابن النحاس أن وفاته كانت في عام 600 أو 615 للميلاد[37]، ولويس شيخو صاحب شعراء النصرانية أنه توفي عام 615 [38]، وإذا ما أردنا معرفة عمر عنترة، وأميل مع القول الذي يرجح وفاته بسنة 615 للميلاد، فيكون قد بلغ من العمر 87 سنة في ضوء ما توصلنا إليه من أنَّه قال المعلقة سنة 570 م بعد معركة شعب جبلة، وكان عمره فيها اثنتين وأربعين سنة[39]، وبذلك يكون قد مضى على دعوة مُحَمَّد (ﷺ) خمس سنوات؛ دعوة الإسلام التي نادت بالعدل والحق والمساواة، وقد جاءت ثورة على العبوديَّة، رفعت عبداً حبشياً كبلال بن رباح (رضي الله عنه) ووضعته في مصاف الأنبياء وسادة قريش، فقد أدرك عنترة السنوات الخمس الأُولى منها، ولا شك أنَّه سمع بها، وحنَّ إليها من خلال حنينه لنسيم الحجاز بعد شكوى الزمان بسبب طول العبودية، بقوله :

حَسناتي عِند الزَّمان ذُنوبُ   وفِعـــــالي مَذمَّـــةٌ وعيُـــوبُ

يا نسيمَ الحِجاز لولاك تُطفَأُ   نارُ قلبي، أذابَ جِسْمي اللهيــبُ

يجمع عنترة في عروقه خليطاً من دمين مختلفين؛ دم أبيه العربي السامي ودم أمِّه الحبشي الحامي، إذ ولد عنترة من أمةٍ حبشيةٍ تدعى زبيبة، أخذ منها الشكل والخلقة واللون، مما حدا بأبيه أن ينكره ردحاً من الزمن، إذ أن زبيبة أَمَةٌ يمكن أن يطأها غيره بسهولة، على خلاف السبيَّة الموقوفة على رجل واحد، أمّا الأمَة فكانت مشاعا، ولعنترة إخوة عبيد من أمِّهِ زبيبة لم ينسبهم أحد، فمن أين لشداد أن يتأكد من أبوّته لهذا الطفل؟ وقد ولد بعيد الشبه عنه من الناحية الخَلْقيَة.

قال ابن الكلبي: عنترة أحد أغربة العرب[40] لسواده الذي انحدر إليه من أخواله، وليس سواد اللون فقط الذي أخذه من أُمِّه وإنّما تشقق الشّيفة أيضاً فلُقِّبَ بعنترة الفلحاء[41] وعُرِف لعنترة كُنى أخرى كثيرة مثل: أبى المغلس وأبي الفوارس[42] وأبي المعايش وأبي أوفى[43] وكانت كنيته في الحرب خاصة أبا عبلة[44].

يقول ابن الأنباري: "كان عنترة من أشد الناس بأساً وأجودهم بما ملك"[45] وقد وصف نفسه قائلاً: "إني لأحتضر البأس، وأوفي المغنم، وأعفّ عن المسألة، وأجود بما ملكت وأفضل الخطة الصمعاء"[46].

واشتهرت له أبيات في الخجل والعفّة تدل على ذروة التحضر القيمي الذي وصلته أخلاق العرب قبل الإسلام:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي حتى يُواري جارَتي مأواها
إني أمرؤ سمحُ الخليقةِ ماجدٌ لا أُتبِعُ النفسَ اللجوجَ هواها
أغشى فتاة الحيِّ عند حليلها وإذاغزاَ في الحرب لا أغشاها[47]

ويروى صاحب الأغاني عن ابن عائشة أنه قال: أُنشِدَ النبي (ﷺ) قول عنترة:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

فقال (ﷺ): ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة [48]، وهذه شهادة نبوّيّة على كرم أخلاق عنترة لا تعدلها شهادة.

سواد عنترة وبياض عبلة: ولد عنترة فاحم اللّون أسودًا، عبدًا حبشيّ الملامح، باسل الوجه[49])، وهو أحد أغربة العرب[50]، لم يعترف به شدّاد،

ولم ينسبه أحد غيره، وعاش طفولته وصباه وشبابه على هذه الحالة من البؤس والشدّة والهوان ومعاناة الاستبعاد[51] عبدا للحلب والصرّ ينام على أخلاق حِلّسٍ بهيمة بين أطناب البيوت، ولا يشتكي:

أنا العبدُ الذي خُبِّرت عنه رعيتُ جمال قومي من فطامي

أروح من الصّباحِ إلى مغيبٍ وأرقدُ بين أطنابِ الخيام[52]

وبقي على هذه الحال من العبوديّة والهوان حتى تجاوز الأربعين[53]، وما بعد الأربعين من تصابي[54].

كان عنترة يعيش عيشة العبيد قبل العتق والتحرر، ويشير إلى زمن العبودية في المعلقة بعد أن أعتقه أبوه، مشبهاً زمنها بالطلل القديم المقفر :

حُييتَ من طَلَلٍ تقادمَ عَهدُهُ أقوى وأقــفرَ بعد أمِّ الهيثمِ

وأمُّ الهيثم كناية عن الحرية لأن الهيثم: الصقر[55]، والصقر هو أكثر مخلوقات الله حريّة، وتسميه العرب الحر[56].

فكان عنترة آنذاك لايملك من أمره شيئاً، إنّما كان أمره بيد سيّده شداد، وله أن يضربه، أو يقتله، أو يرهنه ، أو يؤجره أو يبيعه، وكان سيّده يربطه مع الدواب، ويضربه في شبابه ورجولته عندما طالبه مرَّة بالتحرر والعتق والنسب، فقال عنترة :

المالُ مالُــكُمُ والعــبدُ عــبدُكــمُ فهل عذابُك عنّي اليومَ مَصروفُ

تَنْسى بلائي إذا ما غــارةٌ لَفَحَتْ تَخْرُجُ مِنها الطُّوالاتُ السراعيفُ

قد أطعَنُ الطَعنَةَ النَّجلاءَ عن عُرُضٍ تَصْفَرُّ كفُّ أخيها وهو مَنزوفُ [57]

وكان عنترة طيّب المخالقة، عفيفاً إلى منتهى العفاف البشري ، ولولا شجاعته وإقدامه وكرمه لقلت إنّه كان خصيّاً، والعرب كانت تأج العبيد السودان.

كان عنترة هجيناً، وعلى الرغم من أن هجنته قد وضعته في منزلة اجتماعية وضيعة لكنه يفتخر بهذه الهجنة التي ألحقته بالأحرار ذوي البأس والشدة والحميَّة:

وَلَقد عَلِقْتُ بذَيلِ مَنْ فَخَرتْ به   عَبْسٌ وَسيفُ أبيهِ أفنى حِمْيَرا[58]

فقال :

أَنا الهَجيــــــنُ عَنْتَرة   كلُّ امــــــرِئٍ يحمي حِرَة[59]

وإنَّ أسوء الهُجناء حظاً هم السود الذين سرى إليهم السواد من أُمّهاتهم، فقد كانوا سُبَّة يعير بهم أباؤهم البيض، وكان العرب يمقتون اللون الأسود، ويحبون اللون الأبيض الذي هو علامة الأحرار الأنقياء، ويُمدحون به، ووصفوا كل شيء ممدوح عندهم ماديا كان أو معنوياً بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنّه أبيض، ومن سمات الجمال في المرأة أن تكون بيضاء، وهو دليل على شرفها، وقد كان مما يمدح به الرجل أنّه ابن البيضاء[60].

عبلة الحرية البيضاء نشدة عنترة الأسود :

في ضوء تحرياتنا لمواضعات أسماء النساء عند العرب فيما استقبل من أوراق هذا البحث[61]، يستطيع المتتبع لأسماء النساء في العصر الجاهلي في ميراثهم الأدبي والشعبي الاجتماعي قبل الإسلام ، أنْ يقرر أن اسم عبلة لم يرد إلاّ في قصائد عنترة العبسي، وأنّها كانت كنيته في الحرب خاصة، حيث كُني بأبي عبلة، وقد ورد اسم عبلة في قصائد كثيرة له لا جدوى من إحصائها، وورد في البيت الثاني من المعلقة :

يا دار عبلة بالجواء تكلّمي وعِمِي صباحاً دار عبلة واسلمي[61]

من عبلة هذه؟ ولماذا عبلة ؟ لماذا لم يورِّ عنترة عن اسم محبوبته إذا كانت حقيقة، كما كان يفعل الشعراء العرب :

أُوَّري بسُعدى والرَّبابِ و زَينَبٍ وَأنتَ الذي تُعْنى وأنتَ المُـؤمَلُ[62]

فقد لقَّب الشعراء الغربيون في آدابهم معشوقاتهم بألقاب مستعارة؛ لأنَّ الناس فيما يبدو لا يقبلون في يسر أن يشتهر عنهم حديث الحب وسيرة القلب، وأن تذيع أسماؤهم الحقيقية، وكناهم المشهورة، وأسرهم المعروفة، في حوادث الصبابة والوجد؛ فهذا لامارتين قد اخترع أسماء لمعشوقته ليصرف عنها حديث الناس[63].

من البدهي أنَّ كلَّ اسم يرد في أيِّ حديث يجب أنْ لا يرد زوراً، ولا بد من أنْ تكون له علاقة ما بهذا الحديث، وليس كما قال ابن رشيق القيرواني أنَّ الشعراء كانوا يأتون بأسماء النساء زوراً في قصائدهم لمجرد أنها حَلَتْ في أفواههم[64].

عبلة لغة :

العبل: الضخم من كل شيء، وأعبل الرجلُ: غلُظَ وابيضَّ، وامرأةٌ عبلة: أي بيضاء، قال الأصمعي: الأعبل والعبلاء حجارة بيض، وأنشد في صفة ناب الذئب: " يبرق نابُه كالأعبل" أي كحجر أبيض من حجارة المرو، ويقول ثعلب: لايكون الأعبل والعبلاء إلا ابيضين[65]، وقول أبي كبير الهذلي؛ وقد عنى بالأعبل: المكان ذا الحجارة البيض[66]:

صَـديانَ أجـرى الطَّـرفَ في ملمومـةٍ لَيونُ السّحاب بِهِا كلَيون الأعْبَل[67]

فالأسماء لا تخرج عن ثلاثة وجوه، هي : الهيئة والصنعة والجوهر، وربما تقاربت مدلولات هذه الألفاظ بحسب مدلولها اللغوي[68] فالأسماء تجمع بين المعاني

الحسيَّة والمعنويَّة على السواء، ولا يخلو اسم من يكون له أحدى دلالتين إحداهما أصلية والأخرى فرعية مجازية، ومن الطبيعي أن ينظر إلى الدلالة الحسيَّة، على أنها الأصل ، والمعنوية هي الفرع، حُمِلتْ مجازا لتشابهٍ في الصور[69].

لقد خصَّ عنترة عبلة في هذا البيت بدار جديدة وعامرة ولم يخصَّها بطلل، وها هو يطلب منها أن تتكلم وترد على العبسي الذي يريد أن ينتقص من حريته، وتبلغه أنّيه جديرٌ بهذه الحرية التي نالها بحدّ سيفة ويتمنى لها السلامة، وأن يستمر بالعيش في أجواء هذه الدار التي دخلها مؤخراً، ولا طائل من البحث الجغرافي؛ إنْ كانت موجودة منطقة الجواء أوغير موجودة، ولا يقصد الشعراء من ورود الأسماء في الشعر المعنى الأول أو الجغرافي المعروف، وإنَّما ما يُلْمِحُ إليه غالبا هذا الاسم عن طريق المجاز، والجواء: موضع، وهو في الأصل جمع جوّ، والجو ما بين السماء والأرض[70].

إن هذه المعاني تؤيد الزعم أن العبلة هي البيضاء، وهي ضد السواد، فعبلة البيضاء هي حياة الحرية والانعتاق والقوة، فتمامها ضد نقص العبودية، ولونها الأبيض ضد سواده، وكانت كنية عنترة في الحرب خاصة "أبو عبلة" أي أبو البطولة والحرية البيضاء تفاؤلاً، والعرب لا تطلق لقب الأبوة على الصاحب ، ولم يذكر أحد من رفاقه الذين عاصروه أو الذين أدركوا الإسلام وعاشوا بعده كقيس بن زهير والحطيئة وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وعامر بن الطفيل أنَّه كان لعنترة عشيقة بهذا الاسم ، والوحيد الذي ذكر عبلة من أقرانه عامر بن الطفيل في سياق محدد، وهو هروب عنترة في أحدى الوقعات، وتخليَّه عما اتصف فيه من صفات الأحرار مثل: الشجاعة والإقدام:

وَنَجَا بعَنْتَرَةَ الأغَرُّ مِنَ الرَّدَى يَهوي على عَجَلٍ هُوِيَّ الأجدَلِ
وَتَرَكْتَ عَبْلَةَ في السّواءِ لِفِتْيَةٍ بَاتُوا على كُثُفِ الخُيولِ الجُوَّلِ[71]

ومن السياق نستخلص أن المقصود بعبلة الشجاعة، حيث تخلّى عنها عنترة وفرَّ هارباً، وتركها للشجعان على ظهور الخيل ، وقد وردت العبلاء في شعر خداش بن زهير وهي صخرة بيضاء عليها علم إلى جانب عكاظ، ودار حولها معركة كانت لهوازن على كنانة:

ألم يبلغك بالعَبْــلاءِ أنَّا ضَرَبنا خِندَفاً حتى استقادوا

نُبَنِّي بالمنازل عزَّ قَيسٍ و ودوا لو تَسيخ بنا البلادُ[72]

قال الشُّراح وأهل القصص: " إنّ عبلة ابنة عمِّه مالك بن قراد العبسي :

لم يذكر الأخباريون أنَّ لعنترة عمَّاً يُدعى مالك بن قراد ، إنَّما له عماً يُدعى معاوية بن شداد، وقد ذكرته أيام داحس والغبراء، وقتله دريد بن ضمضم في يوم ذي المريقب، وأصاب الحصين بن ضمضم في هذا اليوم عنترة في وجهه، وقال في ذلك :

تركتْ بوجِه العبدِ طولَ حياتِه أرماحُ مُرَّةَ والأسنَّةُ مَنظَرا[73]

وإنَّما أوهم الشراح والقصاصين ذكرُ عنترة "ابنة مالك" في بعض أشعاره، فظنُّوها عبلة، ونسبوها إلى مالك و وصلوا نسبه بقراد العبسي، من ذلك قول عنترة في المعلقة:

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنَةَ مَالكٍ إنْ كُنتِ جَاهلةً بما لمْ تعلمي[74]

وقال في القصيدة اللامية:

فَلَئِنْ صَرَمْتِ الحَبلَ يابْنَةَ مَالِكٍ وَسَمِعْتِ فيّ مقالةَ العُذَّالِ[75]

ومالك بن قراد هذا المزعوم غير معروف في بني عبس، ويستهجن الدكتور فوزي مُحَمَّد أمين بقوله : "من أنبأهم بأن لعنترة عمَّاً يسمى مالكاً "[76]، وأمَّا ابنة

مالك فقد ذكرها معظم الشعراء قدامى ومحدثين، فمن الشعراء الجاهليين، الأعشى ذكرها شاكياً الزمان والشيب في قصيدتين قائلا :

إذ لمتي سوداء أتبع ظلـــها ددناً، قعود غوايةٍ أجرى ددا

هل تذكرين العهد يا ابنة مالك أيام نرتبع الستار فثهمدا[77]

وقال في قصيدة أخرى :

وَلَقَدْ أُرَجِّـلُ جُمَّـتي بِعَشـيَةٍ للشَّربِ قَبْلَ سَنابِكِ المِرتادِ

فالدَّهرُ غَيَّرَ ذاكَ يا ابنةَ مَالِكٍ والدَّهرُ يُعقِبُ صَالحاً بِفَسادِ[78]

وذكرها طرفة بن العبد أيضاً :

قفي ودعينا اليوم يا ابنة مالك وعوجي علينا من صدور جِمالك

قفي لا يكن هذا تعلة وصلِنا لبينٍ، ولا ذا حظـنا من نوالك[79]

وفي ضوء دراسة السياقات الشعرية التي وردت فيها " ابنة مالك " عند عنترة، وعند الشعراء الآخرين والتي تتمحور حول شكوى الزمان، والتبرم من صروفه، وما يعانونه من وذل وهوان، وضيم وعسر حال، وقد كانت " ابنة مالك " منادى في كل الأحوال والشكوى منها وإليها؛ فماذا تكون غير الحياة الدنيا ابنة مالك المُلك، ومالك يوم الدين، خالق الموت والحياة، وهم يتبرمون من الحياة كما نتبرم نحن الآن من حياتنا فنخاطبها باثين شكوانا إليها كلَّما حزبنا أمر فيها .

قصة مخالفة للأعراف والقيم العربيَّة :

قصة عشق ابن زبيبة، العبد، لفتاة حرَّة عبسيَّة مخالفة صارخة للأعراف والقيم العربية في العصر الجاهلي ؛ وأريد أن أطرح سؤالاً، والسؤال مفتاح المعرفة:

هل يقبل العبسيون أنْ يعشق عبد من عبيدهم فاقد للأهلية وغير مالك لنفسه فتاة تنتسب لآل شداد، وهم من شيوخ عبس وشجعانها، ويتغزل بها غزلا حسياً أحياناً في شعر ينتشر بين ربوع الجزيرة العربية وبواديها، وعبس من أقحاح العرب، رضعوا قيم الرجولة والبأس والشجاعة مع حليب أمهاتهم في بوادي نجد، وإشربوا العزّة والأنفة إشراباً مع نسائمها، وأُطلق عليهم الحلّة في دينهم[80]؛ لقتل قيس بن زهير ابنَ الخمس في الحرم[81] وهو قاتل الحارث بن ظالم المريّ، الذي قتل خالد بن جعفر بن كلاب العامري، ثأراً لدم زهير بن جذيمة العبسي[82]. والعبسيون أكثر قبائل العرب مفاخرة وخيلاء، واعتزازاً بنسبهم، فقد فاخر قيس بن زهير كل قبائل العرب، وفي إحدى زياراته إلى مكة ألحَّ على مفاخرة قريش، شريطة تنحية الحرم ، فقالوا له عبد الله بن جدعان : إذا لم نفاخرك بحرمنا الآمن بما نفاخرك، فانصرف عنهم[83].

ومن جانب آخر؛ كيف يذكر عنترة الفارس العفيف، شديد الغيرة على الأعراض، عبلة ويتغزل بها، وعلى مسمع من قومها وأهلها ؛ وهم أهله وقومه!، حيث يقول في أحد أبيات المعلقة:

إذ تستبيك بذي غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم[84]

ويقول من غير المعلقة في مجلس الملك قيس بن زهير واصفاً جسد عبلة الذي ينثني كالغصن بمرِّ النسيم، ثم يشير إلى أنَّه ذاق ريقها، ولُماها البارد:

هذه نارُ عـــــبلةَ يا نديمي قد جلتْ ظُلمةَ الظلامِ البهيم
أضرمتها بيضاءُ تهتز كالغصـــن إذا ما انثنى بـمرِّ النـــسيم
كاعبٌ ريقها ألذُّ من الشهـــــد إذا مازجتْهُ بنتُ الـكروم
كُـلَّما ذقتُ بارداً من لُـماها خلْتُه بفمي كنار الجحـــيم
ملكٌ تسجدُ المـلوكُ لذكراه وتومـي إلـيه بالتفخـــــيم[85]

فهل كان الأمر سهلاً أن يقول مثل هذا الغزل الحسِّي بكاعبٍ من فتيات عبس على مسمع من الملأ في مجلس الملك المحتشد بالرجال والفرسان من بني عبس، أهل الغيرة والشجاعة، وهل يجرؤ عبد أن يقول مثل ذلك في هذا المكان!.

يستهجن فوزي أمين[86] شعر عنترة هذا قائلا: "فهل من المعقول أن يصف إنسان ابنة عمِّه بأنَّها طوع العناق، ويصرّح بذلك أمام الملأ بأنَّه قبَّلها، وذاق رضابها" لذيذة المتبسم "ولذيذ المطعم"، فيقول فوزي أمين: "فأين نخوة عنترة! وأين عفته وغيرته على حرمه! وأين غيرة قبيلته ! وهل تصمت عنه وهو يتِّهر بإحدى بناتها"[87]، فيتلاعب بسمعتها ويعثر مستقبلها، ويطعن في شرفها، بين بنات جيلها، ويفضحها أمام العرب، فتلوكها الألسن وتستخزيها، كيف تعشق فتاة حرَّة عبسيَّة شريفة عبداً دميم الخلقة، مهيض الجناح، مملوكاً لغيره، ولا يملك حتى نفسه؟، ولو حدث مثل ذلك لكان أعظم سبَّة في وجوه عبس، وأشنع ما يعيرون به من المعايب والمخازي والسقطات على مرِّ زمانهم، وأوسع باب للهجاء وأوجعه؛ هجاء الأعراض، ولكننا لم نجد شاعرا هجاهم بمثل ذلك في زمنٍ استعداهمُ به كلُّ من حولهم من العرب ، ولو حدث مثل هذا الأمر لقتلوه وقتلوها.

عنترة لم يكن عاشقاً في يوم من الأيام، وإنَّما كان يعشق سلاحه في سوح المعارك، وهذا باعتراف لسانه، فلماذا لا نصدقه! حيث يقول :

وتطربني سيوف الهند حتى أهيم إلى مضاربها اشتياقا

وإنِّي أعشق السُّمر العوالي وغيري يعشق البيضَ الرِّشاقا[88]

وقوله :

في الخيلِ والخافقاتِ السُّودِ لي شُغُلٌ وليس الصَّبابةُ والصهباءُ من شُغُلي[89]

وقولـــــه :

أطْيَبُ الأصوات عندي حُسْنُ صوت الهندواني
وصريرُ الرمح جهراً في الوغى يوم الطعان[90]

وقولـــه :

نديـــميَّ إمَّا غبـــتما بـعد سـكرة فلا تذكرا أطـلال سلمى ولا هندِ
ولا تذكرا لي غـيرَ خـــيلٍ مُغيرةٍ ونقعَ غُـبارٍ حـــالكِ اللون مُسْودِ
فإنّ غبار الصافـــــنات إذا علا نشقتُ له ريـــحاً ألـــذُّ من النّد
وريحانتي رمحي وكاسات مجلسي جماجم ساداتٍ حِراصٍ على المجد[100]

وقولـــــه:

موتُ الفتى في عزَّةٍ خيرٌ له من أنْ يبيتَ أسيرَ طَرفٍ أكحلِ[101]

وإشارته بأن سبب نحول جسمه لم يكن العشق والصَّبابة، وإنَّما كثرة تعرضه للرماح في سوح المعارك، مخاطباً عبلة، بقوله :

أمَّا تريْني قد نَحَلْتُ ومن يَكُن غَرَضاً لأطرافِ الأسِنَّةِ يَنْحَلِ[102]

من الجلي المستقرأ من حياته وشعره أنّ شداد نَسَبَ عنترة له بعد سن الأربعين ، وقد ولى زمن التصابي[103]، وعلى الرغم من عتقه، لم يمنحه سيِّده مكتسبات الحرية: كالزواج من حرَّة أو نصيب الأحرار من الغنائم، وبعد الأربعين أصبح مولى كَبُرَ هو وكَبِرَت عبلة لو كانت موجودة، ولو كانت فتاة عبسيَّة موجودة لتزوجت سيِّدا حرَّاً شريفاً، ولَتَتَبَّعَ الإخباريون قصة زواجها، وتابعوها حتى وفاتها، ولا يستطيع عنترة أن يطلب منها الزواج عندما تحرر، لأنَّ والده منحه نسبه فقط، ولم يمنحه مكتسبات التحرر مثل الزواج من حرَّة أو نصيب الحر من

الغنائم[104]، وهي لن تقبل به حتى لو مُنِحَ هذا الحق، بعد أن تزوج من عدة نساء من سباياه [105].

وكأنَّه يرى أنَّ عبلة الحرية غير معجبة به ؛ لطول عبوديته، وعدم قبولها له حراً بين أحرارها كما يقول :

فَتَضَاحَكتْ عَجَباً وقالتْ قولةً لا خيرَ فيكَ، كأنَّها لمْ تَحْفَلِ
فعَجِبتُ منها كيفَ زَلَّتْ عَيْنُها عَنْ ماجِدٍ طلق اليْدَيْنِ شَمَرْدَلِ[106]

والعرب يشترطون الكفاءة في الشرف والطبقة الاجتماعية في الزواج، فالمولى لا يحقّ له الزواج من امرأة ذات نَسب صريح. ونشير هنا إلى أنّ هذه الكفاءة انتقلت إلى الفقه الإسلامي فلا يجوز لغير القرشي أن يتزوج هاشمية؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " قريش بعضهم أكفاء لبعض، والعرب بعضهم أكفاء لبعض؛ حي بحي وقبيلة بقبيلة والموالي أكفاء لبعض، رجل برجل "[107]، وقصة سيدنا سلمان الفارسي (ﷺ) لم يقبل بالزواج من حرة، وكان من خيار الصحابة ﷺ وقال فيه الرسول (ﷺ): سلمان منا آل البيت، وتزوج من أمة لبني كندة[108] وقصه أم المؤمنين زينب بنت جحش(ﷺ) في رفضها زيد بن حارثة مولى رسول الله(ﷺ) معروفة، وكذا تحديد المهور؛ إذ إنّ مهر العربيَّة الصريحة يفوق بما لا يقاس مع مهر غيرها .

وما زال هذا الأمر في نجد إلى الآن، فمن مظاهر الطبقية في نجد؛ وجود طبقات ثلاث: هي القبيليون والخضيريون (غير القبليين الأقحاح) والموالي، ومن أبرز مظاهر العصبية القبلية التي تحدَّث عنها الجريسي عدم التكافؤ في الزواج واعتبار النسب أصلا في اختيار الزوج ولم يقف الأمر عند اعتبار الكفاءة في النسب شرطا في النكاح؛ بل وصل الحال إلى التشدد في ذلك والإنكار على من يخرج عنه والمبالغة في اعتبار هذا الأمر[109].

لقد عانى عنترة صنوف العذاب من إفرازات العبودية وتبعاتها الثقيلة على النفس الأبيَّة لمدَّة طويلة تجاوزت أربعين سنة، على الرغم من تدفق دماء الأحرار في شرايينه منذ أن كان مضغة في رحم أمّه، حيث استشعر ذلك بقوله :

يا عبلُ إنَّ هواكِ قَدْ جّــازَ المدى   وأنا المعنَّى فيــكِ من دون الورى
يا عَبْلُ حُبُكِ في عِظامي مع دَمي   لما جَرَتْ روحـي بجسْمي قَد جَرى
وَلَقَدْ عَلِقْتُ بِذيلِ مَن فَخَــرَتْ بِه   عَبسُ وَسيفُ أبيِه أفنى حِمْــيَرا[110]

كان عنترة حر الدخائل، عبد المظاهر الخَلْقيَّة، ومطاوعته سيِّده في رعي الغنم، والقيام بالأعمال الدنيئة في خدمة البيوت والأنعام، والحلب والصر؛ لأنّه كان يشعر أنّه واحد من أبناء ساداتهم، وأنَّه لا بد لهم من أنْ يعترفوا به إنْ عاجلا أو آجلا، فلم يتمرد عليهم، وكان يدرك تمام الإدراك أنَّ حريته مرهونة بأيديهم، فقال عندما أعتقه أبوه مضطراً تحت إلحاح الحاجة إلى بطولته:

عقابُ الهَجْرِ أعقَبَ لي الوِصَالا   وصِدقِ الصَّبْرِ أظهَرَ لي المحالا
ولولا حُبُّ عــبلة في فؤادي   مُقـيمٌ مَا رَعـيتُ لـهم جِمالا
عَتُبْتُ الدَهـرَ كَيفَ يَذلُّ مِـثلي   ولي عَــزمٌ أقــدُّ به الجِــبَالا
وما ردَّ الأعـــنَّة غيرُ عـــبدٍ   ونارُ الحــربِ تشتَعِلُ اشتعالا[111]

فما الوصال الذي ناله بعد الهجر كما يذكر بالبيت الأول سوى التحرر! إذ لم يرو لنا خبر واحد أنَّه وصل عبلة الفتاة العبسية بحبل وصال كالزواج أو بغيره .

وكان يقوم عنترة بأعمال العبيد تلك متحلياً بحلايا الشرفاء من الأحرار: شجاعة مالها نهاية، وعفَّة ما لها قَفْلَة، وشهامة لا تنخذل ولا تُستخزى، وكان مثلاً رائعاً للفرسان الشرفاء في معاملته النِّساء من غير العبسيَّات، وهو ذو حفاظ وصيانة لأعراض العرب الآخرين من أعدائه، وكان يعاملهنَّ برحمة ورقة وعفاف إذا استبى

إحداهنَّ ويريد أن يبني بها، فلا يقدم على استرقاقها، وهو عبد ؛ لكراهته العبوديَّة، وإنّما كان يحررها أولاً ويدفع مهرها لمولاها، ثم يبني بها:

ما استمتُ أُنثى نفسهَا في موطنٍ حتى أُوفي مهرَها مـــــــولاها [112]

لم يعانِ عنترة همَّ العبودية وويلاتها من أبيه فحسب، وإنَّما كان يعاني من نكران قومه له، وعدم اعترافهم بجمائله العديدة وأياديه العظيمة في نصرة قومه في رحى حرب زبون تطحن البشر حولها طحناً، وإنّه مهما قدَّم من بطولات وتضحيات في سبيل الدفاع عن وجودهم وأعراضهم، لا يقابل ذلك بشيء عندهم من التكريم والاعتراف والحسبان، يحسبون حسابه وقت صدام الخيل فيرفعون من مكانته، وإذا ما انتهت الحاجة إليه عادوا إلى سيرتم الأولى، وهو يعرف ذلك فيقول:

ينادونني في السلم يا ابن زبيبة وعند صدام الخيل يا ابن الأطايب[113]

وهذا عمارة بن زياد يرفض الاعتراف بالمنزلة التي اقتسرها عنترة منهم بفروسيته وشجاعته فيقول أمام قومه: "إنكم أكثرتم ذكره، والله لوددت لو لقيته خالياً حتى اعلمكم أنَّه عبد"[114] وعندما سمع عنترة ذلك هجاه قائلاً:

متى ما تلقني فَرْدَينِ تَرجُفْ رَوَانِـــفُ أليتيك وتُستطارا
وسيفي صارمٌ قبضتْ عليه أشاجِعُ لا ترى فيها انتشارا[115]

هذا وقد كان سادة عبس أكثر حسداً وحقداً على عنترة، فيروى أن قيس بن زهير وهو سيد عبس يزأر عندما انهزمت عبس، وطلبتهم بنو تميم فوقف عنترة ولحقتهم كبكبة من الخيل، فحامى عنترة عن الناس فلم يُصب مدبر فقال: والله ما حمى الناسَ إلاّ ابن السوداء[116] "يزأر حقداً على عنترة فيحسده عمل الخير والبطولة وكأنها هذه الأعمال لا تليق بالعبيد ويرى أنه هو أحق منه بذلك.

تعيُّرني العداء سوادَ جلدي وبيضُ خصائلي تمحو السوادا[117]

ولقد وجد أعداؤه سواد لونه مسرباً للتنقص منه فهو يقول:

كان العبسيون يعيبون لونه وعبوديَّته ويغمزونه من ناحية أُمِّه زبيبة في حلِّهم وترحالهم، وإذا أمسوا وأصبحوا وعقدوا وشدوا طيلة حياته، وحتى بعد عتقه ؛ومن وهج الألم وحرارة المذلَّة والإحباط؛ يقول:

يعيبون لوني بالسَّواد وإنَّما فعالهم بالخبث أسودُ من جلدي
وقد أمسوا يعيبون بأُمِّي ولوني كـــــلَّما عقدوا وشدوا

وهو أحياناً يدافع عن لونه معزيًّا نفسه، بمثل قوله :

وإنْ يعيبوا سواداً قد كُسيتُ به فالدُّرُ يستره ثوبٌ من الصَّدف

وأخيراً هذا الرجل العبسي الذى سابَّه وعيَّره بالعبوديَّة بعد العتق، وعيَّره بعبوديَّة إخوته وأُمّه، وعيَّره بعدم مقدرته على قول الشعر، وكان هذا الأمر أنْ علتْ سورة الغضب عند عنترة إلى ذروتها، فَفَجَرَ به، وسبَّه قائلا: إنِّي لأحضر البأس، وأعفُّ عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضُلُ الخطة الصمعاء. قال له الرجل: أنا أشعر منك، قال: ستعلم ذلك[118]، فقال معلقته الحربيَّة الشهيرة، مترجماً رده على العبسي إلى أدلَّة شعريَّة ناصعة تثبت أحقيَّته بالعتق والتحرر، وإنَّه أحق بهذه الحريَّة منذ زمن من كثير مما يسمون أنفسهم أحراراً، ولا تجد فيهم مخايل الأحرار، وأنَّ عنده من حلايا الأحرار وخصالهم أكثر مما عندهم .

يقول صاحب موسوعة الشعر العربي في ترجمته لعنترة أنَّ شعره ما هو إلاّ "سلسلة متلاحقة من الأفكار والتأملات والمواقف التي تُظهر ظَلالَ الذين يعيّرونه بلونه، ويحقرون قدره دون أن يكون في قدره حقارة فعليّة، أو في أفعاله ما يثير

الشبهة ويدفع إلى الهوان، كما أنَّ بطولته وحرصه على إظهار تفّوقه في القتال، ليسا سوى بيّنة أليمة، حاقدة على أنَّ المجتمع لا يعتمد القيمة الإنسانيَّة الخالصة في إقامة الحدود بين الأفراد الذين ينتمون إليه، ولو لم يكن عنترة أسود اللون ابن أمَة، أو عاش حراً متكافئاً مع أقرانه في القبيلة، لضعفت جذوة الشعر في نفسه، أو لزال شعوره بالتحدي فامتنعت عنه حوافز البطولة[119].

إنَّ كتب الأدب والتاريخ المتقدمة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، والنقاد الذين ترجموا لعنترة كالأصمعي وابن قتيبة والمفضل الضبي وابن الكلبي وابن حبيب وأبي عبيدة لم يذكروا شيئاً عن عبلة وعلاقة عنترة بها، ومدى قرابته لها، ولم يتطرقوا لأمر زواجه، لماذا ؟؟ سؤال مهم جداً، إذ إنَّ أول من أشار إلى هذه القصة هو أبو هلال العسكري من علماء القرن الرابع الهجري في كتابه ديوان المعاني [120]، وإنّي لأستهجن روايته في عتق عنترة ؛ فهي تخلو من أي معرفة لناسج القصة بأحوال العرب وعبس خاصة، والرواية تتحدث عن قبيلة عبس، جمرة من جمرات العرب؛ عظيمة العدد والعدَّة، وجاءت الرواية بأسلوب القص الخرافي، تقول: إنّ عنترة جاء ذات يوم إلى الماء فلم يجد أحداً من الحي، فبهت وتحير، حتى هتف به هاتف: أدرك الحي في موضع كذا، فعمد إلى سلاحه فأخرجه، وإلى مهره فأسرجه، واتبع القوم الذين سبوا أهله، فقتل منهم مجموعة فطلب استرداد العجوز السوداء والشيخ الذي معها، فردوهما عليه، فخاطبه عمه أبو عبلة كر وأزوجك عبلة، فكرَّ على القوم وقتل منهم مقتلة عظيمة فردوهما عليه، وقد وصل عدد قتلاه أربعين رجلاً[121].

وحول تحقيق هذه الرواية عن طريق طرح الأسئلة، والأسئلة مفتاح المعرفة:

أولاً: هل تَرِدُ قبيلةُ عبس بقضها وقضيضها الماء، وعبس قبيلة عظيمة العدد يضيق بها الفضاء، لا يسعها ماء ولا يحيط بها مكان، وهل يقتل عنترة في أول تجربة

له في القتال أربعين فارساً!!! وأين جيشها اللجب العظيم!! وهل يظن ناسج هذه الرواية أن زبيبة بقيت عند شداد كأنها زوجة وحيدة له!، شداد لم يعتقها ولم يحررها، ولم يتزوجها، وإنّما وطأها عَرَضاً، فهي شيء مما يملك، وله زوجة حرّة ، وله منها أولاد، وزبيبة أَمَةٌ حبشية رخيصة القيمة، يبعها متى شاء، وأغلب الظن إنَّه باعها مبكراً وقد ولدت عبيداً لم يُعدّو من عبيد شداد.

ثانياً: لم يكن شداد شيخاً هرماً في صدر عمر عنترة ، فقد كان فارساً شجاعاً محترفاً، وهو صاحب جروة فرسه، والقائل فيها:

فمن يكُ سائلاً عنّي فإنّي وجَروةَ لا تباعُ ولا تعارُ[122]

وقد ذكرته أيام داحس والغبراء في نهاياتها، فقد اشترك في قتل حذيفة بن بدر الفزاري وأخيه حمل في موقعة جفر الهباءة مع قيس بن زهير وقرواش بن هنيء والورد بن حابس العبسي، وابن الأسلع[123]، ثم تقول القصة أنّ عنترة استرد أباه شداد وزبيبة بسيفه ، وترك حبَّيه عبلة وعمه حتى يرجوه الأخير، ويعده بالزواج من عبلة !!، ثم أنَّ هذه القصة لم تذكرها أيام داحس والغبراء التي لم تتركك يوماً من أيام عبس إلا ووصفته وذكرت قتلاه وأسراه، وأغلب أيام عبس ومشاهدها في حرب داحس والغبراء، وإنَّ الرواة لم يرووا لعبلة بيتاً واحداً من الشعر أو حتى كلمة واحدة قالتها في حومانة الحرب والعشق و والفروسية.

وأمر آخر هام؛ لماذا تناسى الرواة خواتيم حياة عبلة ، فلم يذكروا شيئا عنها؛ هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ من هو زوجها؟ كيف انتهت حياتها؟ هل توفيت قبل عنترة أم بعده؟ لماذا هذا الصمت المحيّر؟

القرشي يستهجن أن تكون عبلة قد تزوجت غير عنترة، واستمر هو يتغزل بها هذا الغزل الشائق الذي لا تكاد قصيدة تخلو منه، وهذا مما تأباه عليه

شيمته العربية وبداوته الأبية، فحاشا أخلاق عنترة أنْ تتدنى إلى مثل هذا الإسفاف[124].

ولا يمكن أن يحدث مثل هذا في البيئة البدوية التي قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف، كان لا بد للرِّجال والنِّساء من العفَّة ومن التعفُّف، لأنَّ العدوان على عرض الغير يجر ويلاً وحرباً، وكان لا بد من الغيرة على العرض أن يمس أو يخدش[125].

ويقول القرشي: "على أن ما يعجب له الباحث؛ هو أن أكثر المصادر العربية خرست عن ذكر عبلة إلاّ في مجال تشبيب عنترة بها، فلم تنوِّه عمَّا إذا كان قد تزوَّج بها أم بقي حبُّه معلقاً، وتزوَّجت سواه، كما هو حال جميل بثينة وكُثَيِّر عزَّة "[126] ويرى عمر الدسوقي أن عنترة لم يتزوج عبلة، وأنَّه بقي مُتبتلاً في محراب حبِّها[127] في حين أنَّ السيرة الشعبيَّة قد أشارت إلى زواج عنترة بعبلة، وهذا القول لا يقدم ولا يؤخر إن لم يدعمه سند قوي من المرويات التاريخية الموثوقة[128]، غير أنَّ القرشي في النهاية يميل إلى الرأي القائل بأنَّ عنترة قد تزوج من عبلة[129] دون تقديم سند تاريخي موثق مقنع، أمّا مولوي فيقول: "إذن يبقى عدم زواج عنترة من عبلة أمر معقول، فعنترة الذي ظل فترة من حياته عبدا ما كان له أن يتزوج من الفتاة الحُرَّة لأنّه دون مرتبتها".[130]

نعود مرَّة أخرى ونطرح السؤال نفسه؛ لماذا صَمَتَ الرواة عن نهايات حياة عبلة!!، وعبلة لم تكن شيئاً عادياً، فقد أشهرها عنترة بشعره الذي دخل كلَّ بيوتات العرب قديمها وحديثها، فهي من مشاهير العرب وعبس خاصة: عبلة وعنترة وحرب داحس والغبراء، على الرغم من أنَّ عنترة قد أشار إلى زواجها، وأنَّه قتل فارسا أبلجاً ضخماً كبعلها، بقوله:

ولربَّ أبْلَـجَ مثلِ بَعْلِكِ بادِنٍ ضَخْمٍ على ظَهرِ الجَوادِ مُهبَّلِ
غادَرْتُهُ مُتَـعَفِّراً أَوصـالُهُ والقـومُ بينَ مُجَرَّحٍ وَمُجَدَّلِ[131]

والأبلج: الأبيض، والأبيض: الحر، والبيض: الأحرار، يقول المتنبي :

من علّم الأسودَ المخصيَّ مكرمةً أقومُهُ البيضُ أم آباؤه الصـيدُ
وما توهمتُ أنَّ الناسَ قد فُـقِدوا وأنَّ مثل أبي البيـضاء موجودُ [132]

وأبو البيضاء: أبو الحرية، وكان عنترة يكنى أبا البيضاء، ولقد أضفى عنترة على زوجها في البيت الأول من مقطوعته السابقة صفات الأحرار: البياض والضخامة، مشيراً بذلك إلى الحريَّة، وكان الأحرار صيده الثمين في الحرب ومطلبه ليشتفي منهم، وهم الذين حرموه حريته وتنقصوا كرامته وخسَّؤا أعماله وإنْ كانت جليلة، شريفة عظيمة، حمت ديارهم وصانت أعراضهم و وفرت كراماتهم.

إنَّ عبوديَّة عنترة وحقده على الأحرار الذين كانوا سبباً رئيساً في إطالة معاناته، أججت في صدره حب القتل الذريع حسداً من عنده للانتقام منهم، فيقول:

سلي يا عبل عنـَّا يوم زرنا قـبائل عامـر وبني كـلاب
وكم من فارس خليت ملقى خضيب الراحتين بلا خـضاب
يحرك رِجله رعـباً وفيه سنان الرمـح يلمع كالشـهاب
قتلنا منهم مئتين حُـرَّاً وألفاً في الشعاب وفي الهضاب[133]

ويركز على تحديه الأحرار فقط دون العبيد؛ لأنّ العبيد لا يقاتلون، فالقتال والشجاعة للأحرار، وإنَّما العبيد للرعي وخدمة الأنعام والبيوت، يشعلون النار ويحترفون صنع القهوة العربية، وطهو الطعام للضيوف، حيث يقول:

أنا العبدُ الذي خُبِّرْتَ عنه يلاقي في الكريهة ألفَ حُرٍّ[134]

وقوله مخاطبا عبلة (حياة الحرية) مفتخرا بقتل الأحرار حسدا وتشفياً وانتقاماً:

يا عبل كم من حُرَّةٍ خليتها تبكي وتنعى بعلها وأخاها[135]

وقوله يصف بسالته، وبشاعة صور صرعاه وهم ما بين مجرَّح ومجندل :

فَبَادِري وانظُري طَعْنَاً إذا نَظَرَتْ عَيْنُ الوَليدِ إليه شابَ وهو صَبِي[136]

فإذا كان الصبي يشيب من هول ما يرى ، فأولى بعبلة أن تِشيبِ لو كانت من البشر .

فمن هذا المنطلق نستطيع أن نحل عقدة البيت العاشر المفصلي في المعلقة الذي أوقع كثيراً من النقاد في الوهم والحيرة والتمحُّل[137]:

عُلِّقْتُها عَرَضَاً وأَقْتُلُ قومَها زَعْماً وربِّ البيتِ لَيْسَ بِمَزْعَمِ

لقد وقع مولوي بالحيرة فوصف عنترة بتشوش الأفكار إذ يقول: "لقد صنع ذلك في المعلقة فأورد أسماء عبلة وابنة مخرم، وهي غير عبلة لأنه ذكر أنَّه يقتل قومها[138] لقد انطلق مولوي من رواية أبي هلال العسكري (ت 382)، المتهافتة التي ذكر بها قرابة عبلة من عنترة، وأنَّ عمَّه أبا عبلة قد وفَّى بوعده لعنترة بعد أن حرره من آسريه و زوجّه ابنته عبلة.

وتمحَّل مولوي في تفسيره البيت العاشر ووقع في حالة من الاضطراب كالتي وقع بها الشُّراح القدامى، عندما حاولوا تفسير البيت العاشر، حيث يقول: "علقتها عرضا أي اعترضني حبها من غير أن أرومه وأتعرض له، وأنا مع ذلك أقتل قومها (وكيف أحبها وأنا أقتلهم وإنّما يريد أن قومها) أعداء له فلا سبيل إليها، فأنكر لذلك حبه لها، فقال مخاطباً نفسه: هذا فعل ليس بفعلي وضرب الزعم

مثلا، والزعم إنَّما هو في الكلام دون الفعل، وإنما يريد أن حبه لها ليس له ظاهر يوجبه لقتله قومها فكأنه ليس بحب. ويكون أيضا الزعم هنا على أصله أي ما زعمت من حبك ليس بزعم يعضده الصدق ويوجبه الظاهر فهو غير زعم في الحقيقة(والنظر)"[139].

ويقع مؤلفا كتاب "عنترة: الإنسان والأسطورة "بالحيرة نفسها؛ إذ بعدما أشارا إلى أن قصة عبلة لم ترد في أي من المصادر السابقة لأبي هلال الذي يعدُّ متأخرا عن نقاد القرن الثاني والثالث الهجريين، حاولا استجواب شعر عنترة والاعتماد على شهادته، ولكنَّها خيبت ظنهما بعد أن عرضا بعض الأبيات التي تشير إلى تباعد ديارها عن دياره:

وتحُلُّ عبلةُ بالجواء وأهُلنا بالحَزنِ فالصمَّان فالمُتَثَلِّمِ

كيفَ المزارُ وَقَدْ تَربعَ أهلُها بعُنيزتينِ وأهـــلُنا بالغيْلَمِ

حيث استهجنا ذلك بقولهما: "كيف تكون عبلة بنت عم عنترة والشعر يتحدث عن أهله وأهلها، واختلاف دياره عن ديارها "[140].

أمَّا فوزي في كتابه" عنترة بن شداد العبسي "فيعتمد على إشارات عنترة بتباعد أهلها وأهله، وأن هناك عداء بينهما، وأن عنترة قد أشار في بيتين في المعلقة أنه قبَّلها وذاق رضابها[141] ويستهجن هذا القول عن ابنة عمّه، قائلا: أين نخوة عنترة وأين غيرة عبس، ثم يستنطق الأماكن التي حلت بها عبلة فهي تارة في الجواء (والجواء لعبس وبني أسد) وثانية في عنيزتين، وثالثة في الدحرضين لبني تميم، لقوله في غير المعلقة:

ألمِـا بماء الدُّحرضين فَكَلِّمَا ديارَ التي في حُبِّها بتُّ أَلْهَجُ[141]

ثم يذكر أن بين أهليهما عداء "علقتها عرضا وأقتل قومها" وأنَّه يحتاج إلى ناقة شدنيّة خطَّارة زيَّافة لتبلغه ديارها في القصيم وهو في ديار تميم عند الدُّحرضين فيقرر أخيراً أن عبلة ليست عبسيَّة وإنمَّا أسدية من بني مالك بن ثعلبة من بني أسد، وذلك محاولة منه لتفسير نداء عنترة لعبلة بابنة مالك، ثم يحاول أن يبحث عن تفسير لتسميتها بابنة مخرم ولا يكاد يخرج من هذه الورطة إلاّ بالتمحل الغريب[142].

لا يمكن حل هذا التناقض في هذا البيت في ضوء مقولة الشُّراح أنَّ عبلة ابنة عمه؟

فكيف أحبَّها عرضاً دون قصد وهو يعرفها طفلة وشابة ؟ فهما أبناء عمومة على رأي الشراح القدامى، ثم كيف يقتل قومها ؟ وقومها هم قومه بنو عبس، وعبس كانت تخوض حرباً زبوناً مع ذبيان، ولم يُرو عنه أنَّه قتل عبسيَّاً، كيف يقتل عبسيَّاً وهو من قادة الجيش وشجعانه، حمى ديارهم ودافع عن أعراضهم ورثى قتلاهم !، ويؤكد جديَّة هذا الأمر في الشطر الثاني بأنَّ هذا الكلام ليس زعماً ويُقْسِمُ على ذلك.

فيبدو لي حلَّ هذا التناقض بالتأويل الآتي، وبه يستقيم وجه المعني:

لقد تعلق عنترة بهذه الحياة وأعني حياة الأحرار (الحرية :عبلة البيضاء)، عرضاً من غير تَعَمُّلٍ ولا قصدٍ من أبيه عندما وطئ زبيبة أمَةً سوداء في لحظةِ شهوةٍ عارضةٍ، والشعر يفسر بالشعر، حيث يقول عنترة في قصيدة أُخرى:

وَلَقد عَلِقْتُ بذَيلِ مَنْ فَخَرتْ به عَبْسٌ وَسيفُ أبيهِ أفنى حِمْيَرا

ولم يكن شدَّاد يقصد الإنجاب أو حتى لم يدر بخلده أنَّها ستحمل منه، لذا كان دخول عنترة حياة الأحرار والسادة عرضاً ودون أخوته العبيد، فقد تعلق بحياة الأحرار عرضاً ويقتل قومها أي الأحرار في معاركه وحروبه، أما العبيد فهم في منأى

عـن سـيفه وهـم لا يحـاربون وإنَّمـا يرعـون الإبـل ويخـدمونها، فهـو يريـد أن ينـتقم مـن الأحرار، وكانت حرب داحس والغبراء فرصة سانحة لتحقيق ما يريد، فيقول:

قتلنا منهم مئتين حُـــرَّاً وألفاً في الشعاب وفي الهضاب[143]

ويقـول في المعلقـة مصـوراً بشـاعة انتقامه مـن الأحـرار وشـدة حقـده عليهم، بصور منفرة يتلذذ بسرد تفصيلاتها الدقيقة، صور يشيب من هولها الولدان :

كَمَّشْتُ بالرُّمـــحِ الطَّويلِ ثيابَهُ لَيْسَ الكَـــرِيمُ على القَنا بمُحرَّمِ

وَتَرَكْـتُهُ جَـزَرَ السبّاعِ يَنُـشْنَهُ ما بَيْنَ قُـلَّةِ رأسِـهِ والمِـعْـصَمِ

جَادَتْ يَدايَ لَهُ بِعاجِـلِ طَعنَةٍ بمُـثَقَّفٍ صَدْقِ القَـنَاةِ مُقـوَّمِ

برحيبَةِ الفَرْعَيْنِ يَهْدِي جَرْسُها بالَّليْلِ مُعْتَسَّ السِّـباعِ الضُرَّمِ[144]

وفي استنطاق المعلقة غنى وكفاية لترجيح رأينا في ماهيَّة عبلة، نعتمدها فيما يستقبل من أوراق هذا البحث ، فهي أجود شعر عنترة وأوثقه، وقد نظمها بعد تحرره، فكانت أول ما قال من الشعر، مفتتحاً بها زمن الحرية[145]، قالها دفاعاً عن حريته وشاعريته نقض بها اتهامات العبسي الذي عيَّرة بالعبودية وضعف الشاعرية، بعد أنْ أعتقه شداد بعد معاناة طويلة ساعياً بما قدم من أدلة أليمة إثبات أحقيته بالعتق والتحرر، وقد بلغ فيها عنترة حداً كبيراً من الجدة، والإتقان، والإبداع الفني، وطول النفس[146]، فهي نتاج ملكة شعرية متأصلة عميقة، وعقل راشد ناضج تجاوز به صاحبه سن الأربعين، وهو في الذروة من شعر الفحول الذين راضوا أنفسهم طويلا على تلك الصناعة[147]، وهي بعيدة كل البعد عن الغزل والتصابي في المقام التي قيلت فيه، وأحوال الشاعر التي لابسته، ودفعته دفعاً إلى نظمها تسديداً لنقص يعانيه، وتلبية لرغبة يحرمه واقعه من تلبيتها.

المعلقة من الشعر العظيم، وإنَّ في كلَّ نص أدبي جيد –على الأقل– دلالتين؛ دلالة صريحة، ودلالة ضمنيَّة، وهي ما يوحي به النص لقارئه، وهاتان الدلالتان متلازمتان، فالدلالة الصريحة أساسية ومحددة، ويندر أن يختلف فيها اثنان، بينما الدلالة الضمنية تحتاج إلى معرفة فنيَّة في الأدب(148)، وبما أنَّ النصَّ قد فُصل عن زمان مؤلفه، فهو يسمح لنا أن نقول ما نرى من معانٍ أُخر غير ظاهرة على سطح النص بناء على ما يختزنه الشعر في طبقاته من المعاني الثواني.

فوقفت فيها ناقتي وكأنَّها فدنٌ لاقضي حاجة المتلوِّم(149)

في ضوء ما توصلنا إليه في المحطات السابقة في رؤيتنا للمعاني المختزنة في البيت الثاني من أنَّ دار عبلة التي طالبها أن تتكلم وتقف معه وتساعده، وتُبيَّنُ للعبسي الذي عيرَّه بعبوديته السابقة، أنَّه تحرر ودخل دار الحرية الجديدة التي توهم أنَّه لن يدخلها يوما ما بعد أن طال به زمان العبودية، ويومئ إلى ذلك بالشطر الثاني من البيت الأول "أم هل عرفت الدار بعد توهم"، وفي هذا البيت يؤكد على انعتاقه وحريته، فألقى رحله في هذه الدار ليقضي مراده ومطلبه بالمكوث فيها، وأنّه حقيق بذلك "فناقته فدن"، أي حجته عظيمة وواضحة كالقصر وهي الحاجة التي تلوم لها واجبة له، ومطلبه لا ينكره أحد.

وتحلُّ عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمّان فالمتلَّثمِ(150)

أشار عنترة في هذا البيت إلى تباعد أهلها وأهله، كانت سبباً دفع بعض النقاد أن يقرر أن عبلة ليست عبسيَّة، وإنَّما هي حجازية أو أسدية أو تميمية بناء ما ذكره عنترة من ديار مختلفة لعبلة في بعدها الجغرافي، فكيف تنفصل مضارب الأخوة والعشيرة وتتباعد في زمن حرب زبون بينهم وبين ذبيان لو كانت عبلة ابنة عمه!، والشعر لا يلجأ إلى المعنى المباشر إلاَّ ليخفي المعنى الثاني المقصود، فالجواء: موضع،

وهو في الأصل جمع جوّ، والجو ما بين السماء والأرض[151] وردت كلمة (الجواء) بنفس الصيغة عند امرئ القيس في معلقته حيث يصف نشوة طيور الجو غبَّ المطر وكأنها سكرى فيقول:

كأن مَكَاكِيَّ الجواءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سلافاً مِن رحيق مُفَلفَلِ[152]

ويؤكد هذا المعنى عنترة في بيت من قصيدة أخرى قائلاً:

مقامـك في جـوّ السـماء مكـانُهُ وباعي قصير عن نوال الكواكب[153]

فهي الحرية التي تعيش في الأجواء، وهي بعيدة عن متناوله، ويعيش هو العبودية المتمثلة بالحزن والصمَّان والمتثلَّم، وهذه الأماكن معروفة عند العرب بحجارتها الحادّة من الصوّان، والصوان يستعمل لحجارة النار خاصة وكانت العرب تَذْبح بها[154]، فهي منازل ضنك وشدَّة وشظف وعبوديَّة وذل.

من أمُّ الهيثم ؟:

حُيِّيت من طللٍ تقادم عهدُهُ أقـوى وأقفـر بعـد أُمِّ الهيـثم[155]

لقد تطرقتُ إلى هذا البيت في تفسري البيت الثاني من المعلقة عندما استنجد عنترة بدار عبلة (دار الحرية) لتردَّ على العبسي الذي ما زال يُصرُّ على عبودية عنترة على الرغم من تحرره، ويعيّره بها بعد أن أعتقه أبوه وقد مضى قطار العمر، فغضب عنترة وسابه وفجر به وقال هذه القصيدة يردُّ بها عليه، ويقدم أدلة تُبَيْنُ أحقيته بالحرية، وأنَّه أولى بها من كثير من الأحرار الذين يتنقصون من قدره.

وقد خصَّ عنترة زمن الحرية الجديدة بدار جديدة في البيت الثاني "يا دار عبلة بالجواء تكلمي"، وردّي على هذا العبسي، وخبرّية بأحقيتي بالتحرر والعتق، وتمنَّى لها السلامة والدوام، وخصَّ زمن العبودية بالطلل، والطلل، فَقَدَ معناه اللغوي

في الشعر الجاهلي، وأصبح يعني الماضي الداثر المنقطع، لأنَّه لا أطلال لعرب الصحراء، أهل الوبر في الجاهلية المعروفة أو الثانية، فبيت الشعر لا يخلف أطلالا شاخصة فوق الأرض بعد رحيله، وإنَّما يخلف رسوماً تنمحي مع أول رشقة مطر وأول هبة ريح، وإنَّما تحدَّرتْ إليهم هذه اللفظة مع ما تحدر لهم من أشعار الجاهلية الأولى؛ جاهلية عاد وثمود و إرم ذات العماد ومدائن صالح وجسم وجديس، بعد أن دمر الله بلادهم تدميراً، وغدت أطلالاً يرونها أينما توجهوا، ويؤكد عنترة في مطلع معلقته وصول أشعار المرحلة الأولى إليهم، بقوله: "هل غادر الشعراء من متردَّم"، وكعب بن زهير: "ما أرانا نقول إلاَّ مُعاداً أو مُعاراً من قولنا مكرورا".

فهذا الطلل القديم في الحَزْنِ والصُّمَّان، والمتثلَّم مقوٍ ومقفرٍ بعد عبلة وقد كناها هنا بأم الهيثم: والهيثم الصقر(156)، وقد أوهمت أمُّ الهيثم هذه كثيرا من النقاد، فقالوا هذه ليست عبلة، وتساءلوا : هل يعقل أن تكون عبلة قد تزوجت من غيره وأنجبت ولداً أسمته هيثماً، لاسيما أنَّ عنترة أشار إلى أنها متزوجة من زوج أبيض بدين (157).

الصقر أكثر مخلوقات الله حريَّة فهو ملك الأجواء التي كانت تحلُّ بها عبلة، بينما كان هو يحل بمنازك القسوة والسغب والعبودية. وكأنِّي به يقول للعبسي: أنت تعيرني الآن بالعبودية، ذاك زمان العبودية قد مضى، وكان زمناً مقفراً مقوياً؛ لأنَّه كان مفتقراً لأمِّ الهيثم (الحُرِ)، وأمُّه أُمُّ الهيثم الحرية، فهي أمُّ التحرر والانعتاق والكرامة والأنفة والعزَّة.

من هي ابنة مخرم ؟:

حلَّتْ بأرضِ الزَّائرينَ فأصْبَحَتْ عَسِراً علىَّ طلابُك ابنة مَخْرِمَ(158)

أوقعت شعرية عنترة كثيرا من النقاد في الوهم، فظنوا أولا أنَّ عبلة فتاة عبسيَّة ونسبوها إلى مالك بن قراد زوراً وبهتانا، ثم وقعوا في حيرة عميقة أُخرى عندما حاولوا أن يوفِّقوا بين الأسماء التي ذكرها عنترة في معلقته خاصة، مثل ابنة مالك وأُمُّ الهيثم، وابنة مخرم، وتفرق ديارهنَّ، فتوصل بعضهم إلى قناعة أنَّ عبلة من بني أسد، ثم من بني مالك؛ لوجود أسم مالك في بني أسد بكثرة، ثم زادت حيرته في تخريج "ابنة مخرم"، وأجهد نفسه بالتنقيب في "جمهرة أنساب العرب" عن أسماء في بني أسد مشتقة من "خرم" فقال: "رأينا أيضاً في أسمائهم أسماء كثيرة مشتقة من مادة "خرم" فمنهم أيمن بن خريم، ومنهم سيرة بن الأخرم، ومنهم سماك بن مخرمة. ثم يقول: "لعل "عبلة" تكون بنت أحد هولاء المخاريم لو جاز لنا هذا الجمع، وعنترة يناديها أحيانا بأبيها الأدنى "يا ابنة مخرم""[159]، فلو كانت ابنة أحدهم لماذا غفل الرواة عن نسبتها إليه.

وفي شرح التبريزي، مخرم: اسم رجل، وقيل اسمه مخرمة، ثم رُخِّم في غير النداء[160]، والعرب لا تُرخم في غير النداء، وإذا انهددنا إلى معجم لسان العرب وجدنا أن أحد دلالات مخرم هو منقطع أنف الجبل، ومنقطع أنف الجبل يكون ذاهباً في السماء، شامخاً متطاولاً في عنانها، وهو أعلى نقطة على سطح الأرض، وأقرب نقطة إلى السماء، حيث تتخذ منه الصقور أعشاشاً لها، وهو أمنع مكاناً على سطح الأرض، يقول أبو كبير الهذلي:

وإذا رَميْتَ به الفِجاجَ رأيتَهُ يهوي مَخَارِمَها هُوِيَّ الأجْدَلِ[161]

ويقول عمرو بن قميئة:

أرى كلَّ حيٍّ ما تَزالُ طَليعةً عَليْهِ المنايا مِنْ ثَنايا المخارِمِ[162]

ويقول فيه الأسود بن يعفر:

إنّ المنيّةَ والحُتوفَ كلاهُما يوفي المخارمَ يَرقبانَ سَوادي[163]

ففي البيت السابق كنَّى عبلة بأمِّ الهيثم، والهيثم: الصقر، وتسميه العرب الحر، وهو رمز للحرية والأنفة والقوة، وفي هذا البيت ابنة مخرم، ذاك المكان العالي الشاهق الذي تأمن به الصقور على فراخها، وهذا المكان أيضاً أرتبط بالحرية بعلاقة المحلية، فابنة مخرم هي الحرية المنشودة.

وبهذا يستقيم معنى البيت؛ فيكون قول عنترة مقبولاً منطقياً، وذات معنى عميق مرتبط بمعاناته العبوديَّة لزمن طويل، وأنَّ خلاصه من هذه العبودية، وحق منحه الحرية هي بيد الأحرار من أبناء قبيلته عبس، الذين يزأرون عليه دائماً بالكلام، يعيرونه بسواده وعبوديته، ولا يرونه حراً مثلهم حسداً وتكبراً وطغياناً، فأصبح مطلبها عسراً عليه.

كيفَ المزارُ وقد تَربعَ أهلُها بِعُنَيْزَتَيْنِ وأَهلُنا بالغَيْلمِ

عندما عيَّره العبسي بالعبودية، راعه ذلك وشعر عنترة بالخوف على الحرية التي منحت له حديثاً، وما فائدة هذه الحرية إذا لم يعترف فيها أبناء قبيلته، وهم ما زالوا يزرون عليه ماضيه، ولم يباركوا خطوة شداد بعتقه، وحرموه من مكاسبها، ولم يؤازروه للتمتع بشمسها ونسيم هوائها، ولم يعوضوه عن السنوات العجاف الطويلة التي قضاها في العبودية يقوم بالأعمال الدنيئة أمام أعينهم، ويُنادى تنقصاً له بابن زبيبة، ولم يشعروا بالنَّدم على إطالت عبوديته، وكانوا يرون سيَّده شداد يضربه على مطالبته بها وهو رجل كبير فارس شاعر ، فلا يتمرد ويرضخ راضياً بعبوديته، ويقول:

المالُ مالُكُمُ والعبدُ عبدُكُمُ فهل عذابُك عنِّي اليومَ مَصروفُ

ويذكَّر والده ببلائه في الدفاع عنه وعن عبس كلها :

تَنْسى بلائي إذا ما غارةٌ لَفَحَتْ تَخْرُجُ مِنها الطُّوالاتُ السراعيفُ

قد أطعَنُ الطَعنَة النَّجلاءَ عن عُرُضٍ تَصْفَرُّ كفُّ أخيها وهو مَنزوفُ

فيتساءل محتاراً في هذا البيت والألم يعتصره، كيف يحصل على حريته كاملة، ومتى، فالحرية ما زالت بعيدة عنه تقطن عنيزتين، وعنيزة بلدة جميلة بالقصيم، ترتفع عن سطح البحر ألف متر، نسيمها عليل، وماؤها فرات وافر، كثيرة الزروع والنخيل، وافرة الظِّلال معتدلة الحرارة، وقد تعاقبت عليها مشايخ صالحة حافظت على مكتسباتها من العصر الجاهلي إلى الآن، وغدت رمزا لرغد العيش والغنى والكرامة، وقد دخلت بقوة الشعر الجاهلي مُوَظَفَةً لهذا الرمز، أمَّا الغيلم فقد رمز به لحياة العبودية والسغب والجوع والشدة والذل، وإلاَّ كيف يفترق العبسيون وهم في حرب دائمة فيسكن عمُّهُ بعنيزتين وأهل عنترة بالغيلم؟ إلاّ أنَّ عبلة الحرية تحلُّ بعيدة عنه وبينهما بون شاسع.

إِنْ كُنْتِ أزمَعْتِ الفِرَاقَ فإنَّما   زُمَّـتْ رِكـابكُمُ بليـلٍ مُظْلِـمِ(164)

يقال للأمر الذي احكمه أهلهُ قبل أن يظهروه: "وهذا أمر أسري عليه بليل"، أي فرغ منه، ومعناه دُبِّر بليل على سبيل المؤامرة ومقصده مخاطباً الحرية: إنْ كنت تريدين مفارقتي فهذه مؤامرة دبرت ضدي بليل، حيث كان متخوفاً على حريته الجديدة أن تُسلب منه في ضوء عدم اعتراف هذا العبسي بحريته ومعايرته بالعبودية، وحرمانه من مكتسباتها من قبل أبيه.

مَـا راعــني إلاّ حَمُـولةُ أهلهـا   وَسْطَ الدِّيارِ تسفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ(165)

فيها اثنتانِ وأربــعون حــلوبةً   سوداً كخافيةِ الغرابِ الأسحَمِ(166)

كان خوفه مبررا في ضوء ما يلاقيه من إهانات من قبل أبناء قبيلته، فهذا عمارة بن زياد يرفض الاعتراف بالمنزلة التي اقتسرها عنترة منهم بفروسيته وشجاعته فيقول أمام قومه: "إنكم أكثرتم ذكره، والله لوددت لو لقيته خالياً حتى اعلمكم أنَّه عبد"(167) وعندما سمع عنترة ذلك هجاه قائلا:

متى ما تلقني فَرْدَينِ تَرجُفُ رَوَانِفُ أليـتيك وتُستطارا
وسـيفي صـارمٌ قبضـتْ عليـه أشـاجِعُ لا تـرى فيهـا انتشـارا[168]

فقال عنترة مرتاعاً: ما أخافني إلاَّ رؤية رواحل عبس وهي التي تحمل أثقالها في السلم والحرب ويقصد عبيدها (نفسه) الذين على الرغم من أنَّهم منهم، من وسطها إلاَّ أنَّهم يعيشون على هامش الحياة، لا قيمة لهم كالرواحل التي تسف حبَّ الخمخم الجاف المحول المتعفن؛ لأنَّ المعنى المباشر لا يستقيم، لماذا لا تهتم عبس برواحلها، والرواحل مُكَرَّمة عند كل العرب؛ عند عبس وغيرها من القبائل !.

ما الدحرضان في قول عنترة ؟

شَربَتْ بماء الدُّحرُضَينِ فأصبَحتْ زَوراء تَنفِرُ عن حِياضِ الدَّيلَمِ[169]

تقول جلُّ المعاجم والشُّراحُ كلُّهم إنَّ الدحرضين: ماءان في البادية، أحدهما دحرض لآل الزبرقان بن بدر، والآخر وسيع لبني أنف الناقة، وهما معروفان، غلّب المشهور منهما[170]. والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يُجمعان على اسم واحد، وتغليب المشهور منهما؟ هل منبعهما واحد أو مصبهما واحد؟ أو أنَّ أمواههما مختلطة، أو هل مَنْ يشرب من دحرض يجب أن يشرب من وسيع؟

إنَّ الأمواه عند العرب مُفَرَّدَة، أي لكل قوم ماء يستقون منه، ولكلُّ أناس مشربهم، وتلطفت العرب بالسؤال عن النسب، فقيل من أي ماء تشرب؟ والماءان متباعدان لقبيلتين مختلفتين أحدهما لآل الزبرقان بن بدر واسمه حرض، والآخر لبني أنف الناقة، فليس بينهما علاقة كبيرة تُحتِّمُ جمعهما على اسم واحد، ولكن هذا فعل الشُّراح لتخريج هذا الاسم الذي ورد عند عنترة، حيث أنَّهم لم يستطيعوا التخلص من ربقة الحيز الجغرافي لاسم المكان، وربَّما تكون الجغرافيا غير مقصودة، وإنَّما يُوظَفُ رمزُهُ في الشعر، ولو كان الماء مقصوداً، لقال عنترة شربتْ من ماء

الدحرضين، ولا يقول شربت بماء الدحرضين، فشرب منه غير شرب به، فنقول شربت بالكأس من ماء دحرض، ويقول الأعشى:

يا خير من ركب المطيَّ ولا يشرب بكف من بخلا

فهناك خبيئة في قول عنترة لا بدَّ لمن يبحث عنها أن يجدها؛ لأنّ الشعرية تلاعب في تشكيلات اللغة، وحيث أنَّه لم يذكر هذا الاسم المغلب "الدحرضين" أي شاعر آخر من شعراء نجد على مرِّ أزمان الشعر العربي، ومعظم علامات المكان في نجد اشترك فيها معظم الشعراء مثل امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى وعنترة، فهي تدور في أشعارهم إلاَّ "الدحرضان" لم تُذكر إلاَّ عند عنترة، فهل الدحرضان غير موجودين في نجد، وهما على غير ما ذكره الشُّراح وأهل القصص.

قال الأفوه الأودي مفتخراً:

لنا بالدُّحْرُضَيْنِ مَحَلُّ مَجْدٍ وَأحْسَابُ مُـأَثلةٌ طِماحُ
وأفراسٌ مُدَلَّلـــةٌ وبِيْضٌ كأنَّ مُتونَها فيها الوَجاحُ[171]

فما علاقة هذا القائد المذحجي بالدحرضين إذا كانا في نجد؟

والأفوه الأودي وهو صلاءة بن عمرو بن عوف بن منبِّهة بن أود بن صعب[172]، شاعر كبير وقديم نشأ وعاش في اليمن، وقد ذكر الحسن الهمذاني مناطق أود في سرو مذحج باليمن، وقال: "وادي نَعْوَه لبني منبه من أود، وهم رهط الأفوه الأودي"[173] فهو من منطقة وادي نعوه بناحية الزاهر آل حُمَيْقَان بمحافظة البيضاء حاليا، وقد جاء عنه في كتاب الأغاني وهامش الإكليل أنه: "كان من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية، وفي ديوانه إشارة إلى معاصرته المسيح (صلى الله عليه وسلم)[174]، فيكون –إذا صح هذا– فأنَّه يسبق عنترة بحوالي أربعمئة عام، وقال السيوطي بعد أن عدد الشعراء القدماء: "وروى عمر بن شبة في طبقات الشعراء:

... زعم بعضهم أنَّ الأفوه أقدم من هولاء، وأنَّه أول من قصد القصيدة "[175]، وكان تبع بن ذي الأذعار أمَّر الأفوه على جميع مذحج، فكان سيَّدهم لا يصدرون إلاّ عن رأيه ويُعدُّ من حكماء العرب[176].

فما الدحرضان عند الأفوه:

يذكر صاحب معجم البلدان بعد ذكره الدحرضين ماءان في بادية نجد، "الدحرضان: بلد" واستشهد ببيت الأفوه المذكور، وهي منطقة ومركز رئاسة الأفوه في سرو مذحج بالبيضاء، وأنَّها اندثرت فيما اندثر من المدن والمعاقل التليدة[177] ويقول عنترة في غير المعلقة:

ألمــا بماء الدُّحرضين فَكَلِّمَا   ديارَ التي في حُبِّها بتُّ أَلْهَجُ
فيا طالما مازحتُ فيها عبيلةً   ومازحني فيها الغزالُ المغنج[178]

فهو يلهج بحب عبلة الحرية، التي تقيم بالدحرضين، رمز الحرية والمنعة، والغزال المغنج الذي مازحه فيها فتاة حقيقية وهي غير عبلة.

ندع الدحرضين مركز رئاسة الأفوه في البيضاء على أن نعود إليها لنربط بينها وبين عنترة النجدي.

وصف عنترة ناقته التي ستوصله إلى الدار التي يتوق إليها بالقوة والصلابة والحيال، ولا تستطيع أن توصله إلاّ ناقةٌ شدنيَّةٌ لُعِنَتْ بمَحرومِ الشَّرابِ مُصَرَّمِ، ناقة قوة منسوبة إلى الفحل اليمني شدن محرومة الدَّر والنتاج، فهو أقوى لها، وتقول العرب: "الفرس من الفارس" ويكني الشاعر عن نفسه بالناقة أو الحصان، فقد احتاج كعب بن زهير إلى ناقة قوية ضخمة مثلها؛ لتنقله من دار الشرك إلى دار الإيمان في قصيدته البردة، وفي مجال الحرب والمنازلة كنى أمرؤ القيس عن نفسه بحصانه المعجزة في معلقته، الذي سينقله من الهزائم والإحباط إلى النصر على بني أسد

للأخذ بثأره من قتلة أبيه، وهذا ابن الفارض اتخذ من الناقة رمزاً صوفياً في قصائده، حيث يقول :

يا رَاكِبَ الوَجْنَاء وُقيتَ الرَّدى إنْ جبتَ حَزناً أو طَويتَ بطاحا

يقول شارح ديوانه: كنى بالوجناء عن النفس الشديدة في سلوك الطريق إلى الله تعالى، وراكبها هو المريد السالك والغالب على نفسه.[179]

وهذا معروف بالشعر الجاهلي فقد يكنّون عن أنفسهم بالناقة أو بالحصان وبالماء عن القرب والصلة وهو ما يشبه تقنية القناع، فهذا الأعشى يستبطن ناقته في مدحه هوذة بن على حيث يقول:

ألمت بأقوام فعافت حياضهم قلوصي وكان الشرب منها بمائـكا
فلَّما أتت آطـــام جوٍ وأهلَه أُنيختْ وألقتْ رحـــلَها بفنائـــكا[180]

وناقة عنترة التي شربت بماء الدحرضين فأصبحت تزوَّر عن ماء الديلم، فالناقة بهيمة لا تفرق بين ماء أصدقاء أو ماء أعداء، وإنَّما كنَّى عن نفسه وكنَّى بالدحرضين مركز قيادة الأفوه الأودي بمنطقة البيضاء عن المنعة والقوة والأنفة والحرية والسؤدد، وكان عرب الجزيرة يتطلعون إلى حياة أهل اليمن بعين الإعجاب في رقي حياتهم وأنظمة الحكم عندهم، وهم أهل الحكومات والاستقرار.

وكان عنترة يُكنى بأبي البيضاء وأبي عبلة، وعبلة البيضاء أيضاً، والأدلم: الشديد السواد، والديلم: السودان[181]، أي العبيد، فهو يردُّ على العبسي، يقول له؛ تعيرني بالعبودية الآن فذاك زمان ولى ومضى، فأنا الآن حر سيّد، تشربت ماء الحرية والعزَّة والكرامة ولن أعود إلى العبودية مرة أُخرى، ويقول من قصيدة أُخرى:

لا تسقني مـــاءَ الحياة بذلةٍ بل فاسقني بالعزِّ كأسَ الحنظَل[182]

استوقفتني مقولة قيِّمة لابن طباطبا العلوي في كتابه "عيار الشعر" حيث يقول: "فإذا اتفق في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بقبول، أو حكاية تستغربها، فابحث عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنَّهم أرقُّ طبعاً من أنْ يلفظوا بكلام لا معنى تحته".[183]

وعنترة في معلقته هذه يردُّ على العبسي الذي عيَّره بالعبودية بعد أن اعترف به أبوه وأعتقه ، وهذا العبسي عاب عنترة لونه وعبوديته، وأنَّه هو حُرٌ وعنترة عبد، فسابه عنترة وفجر عليه وكاد أن يقتله؛ لشدة غضبه، وفيما قال له: "إني لأحضر البأس وأوفي المغنم وأعف عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصمعاء"، فإنَّ هذه صفات الأحرار قد توفرت فيه، وافتقر العبسي خصمه إليها، فمن هو الحقيق بالحرية، عنترة أم العبسي.

إنَّ شعر عنترة في معلقته خاصة ماهو إلاّ بيّنة أليمةً [184]، يدافع بها عن أحقيته بالحرية، فعنترة يقرّع العبسيَّ الذي يتفاخر عليه بالحرية، ويقول له في لوحة الروضة: إنَّ هذه الحريَّة كروضة جميلة ولكنها ملأى بأُناس كالذباب أمثالك، لا يستحقونها، وأنا حقيق بها أكثر منكم، وذلك لما يحمل من صور بشعة لأهل هذه الروضة ويقصد الأحرار مثل هذا العبسي، فقد وصفهم بأنهم عجزة جذمٌ كذباب يحكُّ ذراعه بذراعه هانئاً مترنماً سكرانا، وهو محروم منها على الرغم من رجولته وشجاعته وكرمه وعفته.

ويشفي عنترة نفسه منهم بالقتل الذريع التي ترد صوره البشعة العنيفة في شعره وفي معلقته خاصة منتقماً من الأحرار الذين أذلوه وهدروا كرامته وتنقصوا قيمته، وصادروا حريته ردحاً غير قليل من عمره، حتى إذا حانت ساعة الانتقام والسداد جعلهم طعاماً لنسور الجو الجوارح وسباع الليل الضرَّم وأخيراً يعزي نفسه بالبيت الأخير، قائلا:

والذي شفى نفسي وأَذْهَبَ سُقمَها قيلُ الفوارس ويك عنترة أقدم

فالذي يشفى صدر العاشق عادة هو لقاء المحبوبة ووصالها لو كان عنترة عاشقاً، ولكنَّه كان بعيداً عن العشق، فالذي شفى نفسه هو اعتراف الأحرار الفرسان ببطولته وشجاعته حتى كانوا يحسبون لِمَقدَمِهِ ألف حساب في سوح المعارك، فيتذامرون فيما بينهم؛ ويلكم أقبل عنترة وأقبل معه الموت الزؤام، فهو اعتراف بلوازم الحرية وهي الشجاعة، وإن لم يعترفوا له بالحريَّة، وهذا كافٍ عنده.

الخلاصـــة :

إنَّ المستعرض لأسماء النِّساء عند العرب في العصر الجاهلي يكاد يجزم أنّ اسم عبلة غير موجود بين أسماء النِّساء من اللواتي ذكرتهن المرويات التاريخية من مثل الشواعر والحكيمات وصاحبات الرأي والحكمة وبنات الشيوخ أو زوجاتهم أو أمهاتهم كذلك أسماء النَّساء التي تدور في فلك الشعراء من مثل زوجاتهم أو بناتهم أو أمهاتهم أو أخواتهم والمشهورين بفنون العصر الجاهلي، ومن الصحابيات بعد الإسلام والمجاهدات والفقيهات والعالمات بأمور الدين والدنيا، ويتأكد من أسماء النِّساء المعروفة أنَّ العرب لا يسمون بناتهم بأسماء تدل على الجمال والصِّبا والميعة كعبلة "البيضاء" في مجتمع يقدس البياض ويمقت السواد، وللعرب فلسفة في تسمية أبنائهم وعبيدهم أيضاً.

إنَّ أشد قيم العرب تتمحور حول المحافظة على العرض وصيانة النِّساء، والغيرة الشديدة عليهن، وإنَّ أكثر ما يذل العربي أن يمس عرضه بسوء، وإنَّ أعظم ما يقلقه هو خوفه من سبي النِّساء، أو أنْ تمس بسمعة أو ريبة، فهو العار والشنار ولا يغسل العار إلاَّ بالدم .

إنَّ من المستحيل أنْ تحدث قصة حب بين عبد لا يملك نفسه وفتاة من بنات القبائل أهل الأنفة والعزَّة والكبرياء، لا سيما في قبيلة كقبيلة عبس أعز قبائل العرب وأكثرها مفاخرة بأحسابها وأنسابها وحماية أعراضهم وشجاعة رجالها وقوة جيشها وعددها وعدتها، ولو حدث مثل ذلك لمحوا عارهم بالدم والقتل،كما فعلت بنو الحسحاس بعبدها بعد أن تغزل بإحدى بناتهم غزلاً فنياً فحسب، والعبد عندهم أقل قيمة من البهائم والأنعام؛ يقتله سيُّده متى شاء أو يرهنه أو يبيعه أو يؤجره، ولَتَعرَّضوا للهجاء في هذا الباب وهو أشد وطأة على العربي عامة والعبسي خاصة أن يعير ويغمز من جانب الأعراض، ولم نسمع أن أحداً عيَّر عبس بمثل ذلك وقد عاداها كلُّ من حولها من العرب وخاضت حربا ضروسا استمرت عشرين سنة بسبب الكبر والعنت والخيلاء.

عنترة بن زبيبة بقي عبداً ذليلا لمدة أربعين سنة على الأقل، ولا يسمح له أثناء عبوديته أن يمارس شعور الحب كغيره من لداته الأحرار، وقد مضى عليه عمر التصابي وهو عبد مع الأبل للحلب والصر، ويرقد في ليله بين أطناب الخيام في سرج فرس أو حلس حمار أو بعض جلود الرحل .

ما يستنتج الدارس المدقق من صمت الرواة الرهيب المحيِّر عن ذكر خواتيم حياة عبلة ؟ التي لم يذكر أحد من الرواة أين توارت عبلة بعد حرب داحس والغبراء، أأخفاها نقع المعارك بين الرقمتين في حومانة الدرَّاج فالمتثلِّم ! ولماذا غيَّب التاريخ ذكرها، فلا يعرف هل تزوجت من عنترة أو من غيره ؟ وهل أعقبت ؟ ومتى توفيت قبل عنترة أم بعده ؟ وعنترة عاش ثلاثين عاما بعد الصلح بين عبس وذبيان الذي وقع عام 585 م، ولم يذكرها أحد من رفاق عنترة الذين أدركوا الإسلام .

إنَّ المستقرىء الفاحص غير العجل الذي تخلَّص من هوى الشراح القدامى وغوى القصاصين يستنتج من كلِّ ذلك؛ أنَّ عبلة لم تكن فتاة من بنات عبس وإنَّما هي من ابتداع الشعرية والفن وهي الهمُّ الذي أرَّق الشاعر الفارس أيام عبوديته الطويلة، وهي بغيته التي تلوَّم عليها، ومطلبه الأثير، وحلمه الراقي وهو الانعتاق من ربق العبودية وهوان الرق، وهي الحرية "عبلة البيضاء" التي كان يتوق إليها عنترة ويعشقها عشقاً أبدياٍ وحيداً وكافح سنين طويلة من أجل الحصول عليها، وعندما حصل عليها وانتهت حرب داحس والغبراء، انتهت قصة عبلة الفنيَّة، وطوتها رمال نجد والقصيم بسرعة، وكأنَّها شيءٌ لم يكن .

الهوامش :

1) صالح، صلاح: **مشكلات النقد التأويلي**، بحث مقدم في مهرجان القرين، الكويت، 2006، ص20، الموقع الإلكتروني: (www.kuwaitculture.org/qurain13/word/s)

2) صالح، صلاح: **مشكلات النقد التأويلي**، بحث مقدم في مهرجان القرين، الكويت، 2006، ص20، الموقع الإلكتروني: (www.kuwaitculture.org/qurain13/word/s)

3) ضيف، شوقي، **العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ط8، 1960، ص6 .

4) عزام، مُحَمَّد: **اتجاهات التأويل النقدي من المكبوت إلى المكتوب**، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2008م، ص36.

5) أدونيس، سعيد عقل: **الثابت والمتحول**، دار الفكر، بيروت، ط5، 1986م، ج2، ص117.

6) انظر: الأصفهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، تحقيق وطباعة : دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997: 243/8.

7) مولوي، مُحَمَّد سعيد، **ديوان عنترة** ، المكتب الإسلامي، ط1 ، 1970 ، ص 226 .

8) المرجع نفسه ، ص 340 .

9) ابن السكيت، **عروة بن الورد**، مرجع سابق، ص21.

10) ديون **حاتم الطائي**، دار صادر، بيروت، 1981، ص51 .

11) المرجع نفسه، ص31 .

12) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص 308.

13) الجندي ، علي، **في تاريخ الأدب الجاهلي**، دار الفكر، القاهرة، ص27.

14) سلام، عبد المحسن، عاطف، **حيوات العرب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1978، ص190.

15) الرافعي، مصطفى، **حضارة العرب**، دار الكتاب العالي، بيروت، 1988، ط4، ص47 .

16) المرجع نفسه، ص48.

17) علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب**، مرجع سابق، ج3 ، ف110، ص1120 .

18) المقداد، محمود، **الموالي ونظام الولاء من بالجاهلية إلى أواخر العصر الأموي**، دار الفكر، دمشق، 1988، ط1، ص76.

19) فروخ، عمر، **العرب في تاريخهم وحضارتهم إلى آخر العصر الأموي**، دار العلم للملايين، بيروت، 67-68 .

20) ابن منظور،جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم، **لسان العرب** : مادة القين .

21) المقداد، محمود، **الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي**، مرجع سابق، ص80 .

22) من المقنع الكندي الدالية في الموقع الألكتروني: http://www.stooob.com/220681.html

23) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن مُحَمَّد، **الكامل في التاريخ**، المطبعة الأزهرية، ط1، 1972، ج1، ص587. و أبي عبيدة، معمر بن المثنى، **النقائض**، طبعة ليدن، 1905،ج2، ص137، وعلي ، جواد، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، مرجع سابق، ج5، ص373.

24) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، **النقائض**، مصدر سابق، ج2، ص 137.

25) المصدر نفسه، ج2 ، ص 241.

26) إبراهيم والبجاوي، **أيام العرب في الجاهلية**، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص212.
ابن سعد، أبو عبد الله مُحَمَّد، **الطبقات الكبرى**، المطبعة المصرية، 1960، ج2، ص61 .

27) شيخو، لويس، **شعراء النصرانيَّة**، مرجع سابق، ص932.

28) انظر: الدينوري، ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، مصدر سابق، ص149، وديوان عنترة، مولوي، مرجع سابق، ص36.

29) وحدُّ الاتساع عند ابن رشيق القيرواني: إن يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى، وإنّما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعاني. (انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه، وفصله، وعلق على حواشيه مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، ج2، ص93). وحدَّهُ عند ابن أبي الأصبع المصري "أنْ يأتي الشَّاعر ببيتٍ يتَّسع فيه التأويل على قَدْرِ قوى الناظر فيه، وبحسب ما تحتمل ألفاظه". (انظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني مُحَمَّد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1995م، ص454).

30) فمن باب الاتّساع يأتي تأويل هذا البيت، حيث استوقفني عدد الحلائب "اثنتان وأربعون" حلوبة، وتحديده هذا الرقم بدقة، فهل يعقل أن الشاعر قام بإحصاء النوق السود في ليل مظلم، كما يقول في البيت السابق "زمت ركابكم بليل مظلم"، والبهائم السود لا تظهر في الليل البهيم المظلم، والشعر لا يصرح بالحقائق تصريحاً مباشراً بهذه الطريقة، وإنما وسيلته المخيلة والتلميح!.

يقول الدكتور أنور أبو سويلم "وقد نفهم من عدد "الحلائب السود" في قطيع الإبل، الثراء الذي ينعم به قوم عبلة الصرحاء"(انظر: دراسات في الشعر الجاهلي: ص 17) فأي ثراء هذا! وكان العرب في الجاهلية يهبون المائة من الإبل لعابر السبيل وصاحب الحاجة الذي يقصدهم ويستنزل كرمهم؛ يقول لبيد بن ربيعة :

الواهبُ المائةَ المعِكاءَ زيَّنها سعدانُ توضحَ في أوبار اللبدُ

(انظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، ص 34)

والعرب لا يمتدحون الناقة الهزيلة المنتجة ولا الناقة المدرَّة، والناقة المنتجة لا تعطي لبنها إلاّ لسقبها، لذلك كانوا يحتالون عليها بتقريبه منها، وإنّما يفخرون بالناقة العظيمة،المكتنزة اللحم، والصلبة الشديدة، والقوية الغليظة، وقد تتمثل هذه الصفات في الناقة العاقر وأطلقوا عليها ألقاباً، مثل: عذافرة، ووجناء، وجمالية، وعرمس، وغلباء، وعجنس، وعلنداة، عرندسة، وعنتريس، ودوسرة، وكل هذه الصفات تجمع الضخامة والشدة والقوة، فقال الأعشى مفتخرا بناقته التي صلّبها طول الحيال، ولم تنتج :

مِنْ سَراةِ الهجان، صلَّبها الع ضُّ ورعي الحِمى وطول الحيال

لم تعطف على حوارٍ، ولم يقـ طعْ عُبيدٌ عروقَها من خُمال

(انظر: ديوان الأعشى، ص 164)

يقول بشامة بن الغدير مفتخراً بناقتة الصلبة السريعة الجسورة المكتنزة لحماً والمطبقة شحماً:

فقرّبت للرّحل عيرانةً عُذافرةً عنتريساً ذمولا

مُداخلةَ الخلقِ مِضبورةً إذا أخذ الحاقفات المقيلا

(انظر: مختارات شعراء العرب لأبن الشجري، ت: علي مُحَّد البجاوي، دار الجيل،1992، ط1، ص58)

في ضوء التحريات السابقة؛ نُرجح أنّه قصد بالاثنتين والأربعين حلوبة هي عدد السنين التي قضاها في العبودية قبل أن يعترف به أبوه، وأنّه كان مختفياً فيها مع قطعان الإبل للحلب والصر، بعيداً عن مجالس قومه وأحاديثهم وأيامهم ومفاخراتهم، وهو يقول :

أنا العــبد الـذي حُبِّرْتِ عنه رعيت جمال قومي من فطامي

أروح من الصباح إلى مغيب وأرقــد بين أطـناب الخـيام

كأنَّه ريشة سوداء ضعيفة خافية تحت جناح غراب شديد السواد، لا تظهر وتبقى خفيّة لا يسمح لها بالتقدم، فالخوافي: الريش دون الريشات العشر من مقدَّم الجناح.والعرب لم يشبهوا شيئا بالغراب في المدح والثناء، والغراب عندهم أنكد شيء(الحيوان ن الجاحظ، ج2، ص103) وغدا عندهم رمزا للشؤم والبؤس والبين والفرقة والخراب .

31) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابلق، ص 270. والجادر، محمود، **معلقات العرب**– دراسة في مواصفات الاختيار، مجلة المورد، المجلد 27، العدد الثاني، 1999، ص1220.

32) انظر: مسرد ولادات ووفيات أصحاب المعلقات السبع صنعة مُحَمَّد علي حمد الله في مقدمة شرح المعلقات السبع للزوزني 21-32، وقد نقله د. محمود الجادر وعلَّق عليه في بحثه الموسوم بـ (معلقات العرب– دراسة في مواصفات الاختيار): ص1220.

33) عبد الرحمن ، عفيق، **الشعر وأيام العرب**، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1984، ص490.

34) القرشي، حسن عبد الله، **فارس بني عبس**، دار المعارف، 1993، ص55.

35) حتي، فليب، **تاريخ العرب**، دار النشر والطباعة، القاهرة، 1958، ج1، ص 107.

36) النحاس، أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد، **شرح القصائد التسع المشهورات**، تحقيق أحمد خطاب، دار الحرية، بغداد، 1973، القسم الثاني، ص 453.

37) شيخو، لويس، **شعراء النصرانية**، مرجع سابق، ص 79.

38) انظر الحاشية رقم 68 من هذا البحث .

39) انظر: شيخو، لويس، **شعراء النصرانية**، مرجع سابق، ص795.

40) المرجع نفسه، ص 794.

41) البطليوسي، الأعلم، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، مرجع سابق، ص11.

42) قميحة، مفيد، **شرح المعلقات العشر**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1987، ص262.

43) انظر: البطليوسي، الأعلم، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، مرجع سابق، ص11، وانظر: التبريزي، أبو زكريا يحي بن علي، **شرح الحماسة**، تحقيق مُحَمَّد عبد المنعم خفاجة، مصر، 1913، ج1، ص218.

44) الأنباري، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، مصدر سابق، ص293.

45) المصدر نفسه، ص293.

46) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص308.

47) انظر: الأصفهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، مصدر سابق، 235/8، و شيخو، **شعراء النصرانية**، مرجع سابق، ص799.

48) باسل الوجه: كريهه.

49) انظر :الدينوري، ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، مرجع سابق، ص149. وأغربة العرب ثلاثة هم: عنترة وأمُّه زبيبة أمَة سوداء، وخفاف بن عمير الشريدي من بني سليم، وأمّه نَدْبَة، وإليها ينسب، وكانت سوداء، والسليك بن عمير السعدي، وأمّه سُلَكَة وإليها ينسب، وكانت سوداء .

50) انظر: أحوال العبيد في مجتمع القبيلة العربية في ما استقبل من أوراق هذ البحث ..

51) ديوان **عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص 244 .

52) انظر الحاشية رقم 61 السابقة من هذا البحث.

53) على رأي حسان بن ثابت(ﷺ):

وَكَيْفَ لا يَنسى التَّـــصابي بَعدَما تَجَاوزَ رأسَ الأربعـينَ وجَرَّبَا
وَكَيفَ تَصَدّي المرْءِ ذي اللُّبِّ للصِّبا وَلَيْسَ بِمَعْذورٍ إذا مِا تَطرَّبا

(ديوان حسان بن ثابت، شرح عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، ص 19.)

وقال جرير :

وَمَاذا يَبْتَغي الشُّعراءُ مِنّي وَقَدْ جَاوزتُ حدَّ الأربعِين

(ديوان **جرير**، شرح مهدي مُحَمَّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ص437).

وقول فيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري :

وما بعد مرِّ الخَمسَ عَشَرَ من صِبا ولا بعد مرِّ الأربعين صَبَـاءُ

(الموسـوعة العالميـة للشـعر العـربي (adab.com) مـن قصـيدة أبي العـلاء المعـري " أولي الفضل في أوطانهم غرباء")

54) ابن منظور، **لسان العرب** : باب هثم.

55) المعجم **الوسيط**، دار عمران، ص 1011.

56) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص270 .

57) ديوان **عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص229.

58) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص329.

59) خليف، يوسف، **الشعراء الصعاليك**، دار المعارف، القاهرة، 1959م، ص108-109.

60) انظر مواضعات الأسماء عند العرب فيما أستقبل من أوراق هذا البحث.

61) زيدان، جرجي، **تاريـخ آداب اللغـة العربيـة**، طبعـة جديـدة، راجعهـا شـوقي ضـيف، دار الهلال، 1957 ص128، حيث يقول جرجي زيدان: إن اكثر الرواه ينكرون أن يكون مطلع المعلقة له ومنهم الأصمعي وابن الأعرابي، وكلهم يقولون ان أول المعلقة الحقيقي هو هذا البيت:

يا دار عبله بالجواء تكلمي وعِمِيّ صباحاً دار عبلة وأسلمي

فهم يقرون بسبب قول القصيدة وهو سبُّ الرجلِ العبسيّ له وتعييره بسواده وأُمِّه واخوته وأنَّه لايقول الشعر ثم ينكرون مطلع القصيدة المرتبط ارتباطاً مباشرة بالسبب ويعدُّ رداً مباشراً لما عيره به العبسيُّ.

62) انظر: www.azahera.com من قصيدة غزلية في ألقاب الحديث لشهاب الدين أحمد بن فرج الإشبيلي (ت699)

63) انظر: الغزل- **سلسة فنون الأدب العربي**، دار المعارف، ج 1، ص212.

64) القيرواني، أبو الحسن ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ت: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4، 1972، ج1، ص121.

65) انظر: ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم، **اللسان**، مادة (عبل).

66) المصدر نفسه، مادة (عبل).

67) ورد هذا البيت في ديوان الهذليين بالشكل التالي:

صديان أخذى الطَّرفَ في ملمومةٍ لونُ السحاب بها كلون الأعبَل

والأخذَى: الذي في طرفة استرخاء من عطش، والأعبل: المكان الذي فيه حجارة كثيرة بيض، وقوله في ملمومة يعني هضبة مدوَّرةً قد لُمَّ بعضها إلى بعض، انظر: **ديوان الهذليين** نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، القسم الثاني، ص98.

68) خريوش، حسين، **التسمية : ماهيتها وفلسفتها وخصائصها الدلالية**، حسين خريوش، عمادة البحث العلمي، جامعة اليرموك، ص 27.

69) المرجع نفسه، ص 50.

70) انظر: البطليوسي، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، مصدر سابق، ص14.

71) الطفيل، عامر، **ديوان عامر بن الطفيل**، رواية أبي العباس ثعلب، دار صادر، بيروت، توزيع دار صعب، 1979، ص93 .

72) إبراهيم والبجاوي،مُحَمَّد أبو الفضل و علي مُحَمَّد، **أيام العرب في الجاهلية**، مرجع سابق، ص255.

73) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص 327.

74) المرجع نفسه، ص 207.

75) المرجع نفسه، ص 336.

76) أمين، مُحَمَّد فوزي ، **عنترة بن شداد العبسي**، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، 1992، ص36.

77) **ديوان الأعشى**، شكري فرحات، دار الجيل، 1992م، ط1، ص 83.

78) المرجع نفسه، ص 78.

79) الجندي، علي، **طرفة بن العبد**، مرجع سابق، ص 104.

80) قبيلة عبس وثنية العقيدة، لها صنم في حراض، انظر: علي، جواد، **المفصل في تاريخ العرب**، طبعة بغداد، 1978م، ج6، ص237.

81) الأصفهاني، أبو الفرج، **الأغاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص146.

82) انظر: المصدر نفسه، 98/11.

83) انظر: إبراهيم والبجاوي، **أيام العرب في الجاهلية**، مرجع سابق، ص196.

84) مولوي، مُحَمَّد سعيد، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، 194.

85) **ديوان عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص178.

86) الدكتور مُحَمَّد فوزي أمين، أستاذ في جامعة الإسكندرية وجامعة القصيم، صاحب كتاب "عنترة بن شداد العبسي" وقد ألف كتابه هذا وهو يعمل في جامعة القصيم أحد مواطن عبس، وكتابه من المراجع الرئيسة لهذا البحث.

87) أمين، مُحَمَّد فوزي، **عنترة بن شداد العبسي**، مرجع سابق، ص50.

88) **ديوان عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص 146.

89) المرجع نفسه، ص 56 .

90) المرجع نفسه، ص 155.

91) المرجع نفسه، ص 173.

92) المرجع نفسه، ص 85.

93) المرجع نفسه، ص 208.

94) انظر رأي الشعراء في عمر الأربعين فيما سبق من أوراق هذا البحث.

95) انظر: فروخ ، عمر، **العرب في تاريخهم وحضارتهم إلى آخر العصر الأموي**، مرجع سابق، 67-68.

96) انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، ت: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961، 317/3، البغدادي، عبد القادر بن عمر، **الخزانة**، مصدر سابق، 11/3، مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص84.

97) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص254.

98) الزيلعي، عبدالله بن يوسف، **نصب الراية لأحاديث الهداية**، تصحيح إدارة المجلس العلمي و مُحَمَّد عوامة، ط1، 1997، دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة الريان، بيروت، 197/3.

99) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، ت: عبد المنعم قلعجي، ط1، دار الكتب العلميةن بيروت، 1405هـ، 418/3.

100) الجريسي، خالد بن عبد الرحمن، **العصبية القبلية من المنظور الإسلامي**، مطابع الحميضي، مؤسسة الجريسي للتوزيع، الرياض، 2008، ص92.

101) **ديوان عنترة** ، دار الجيل، مرجع سابق، ص229.

102) **ديوان عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص77.

103) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص308.

104) المرجع نفسه، ص103.

105) انظر: عبد الرحمن، عفيف، **الشعر وأيام العرب**، مرجع سابق، ص498.

106) **ديوان عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص23.

107) انظر: شيخو، لويس، **شعراء النصرانية**، مرجع سابق، ص795.

108) **ديوان عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص186.

109) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص124.

110) الصفدي وحاوي، مطاع وإيليا، **موسوعة الشعر العربي**، أشرف عليها خليل حاوي، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، 1974م، ج1، ص521-522.

111) انظر: العسكري، أبو هلال، **ديوان المعاني**، مرجع سابق، ج1، ص110.

112) العسكري، أبو هلال، **ديوان المعاني** ، القاهرة ، 1322 هـ، ج1، ص110.

113) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص 24.

114) إبراهيم والبجاوي، **أيام العرب في الجاهلية**، مرجع سابق، ص207.

115) انظر: القرشي، حسن عبدالله، **فارس بني عبس**، مرجع سابق، ص54.

116) المرجع نفسه، ص54.

117) المرجع نفسه، ص 53 .

118) الدسوقي، عمر، **الفتوة عند العرب**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ص 434.

119) الحوفي، أحمد، **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**، القاهرة، 1956، ص 282.

120) انظر القرشي، **فارس بني عبس**، مرجع سابق، ص61.

121) انظر: مولوي، **ديوان عنترة**، ص47.

122) المرجع نفسه، ص 257 .

123) اليازجي، ناصيف، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، ت: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، (د.ت)، ص561.

124) ديوان **عنترة**، دار الجيل، ص 55 .

125) المرجع نفسه، ص 143.

126) المرجع نفسه، ص 250.

127) المرجع نفسه، ص 64.

128) المرجع نفسه، ص 64.

129) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، حاشية 1، ص 98 .

130) المرجع نفسه، ص 191.

131) عياد ونوفل، شكري ويوسف، **عنترة: الإنسان والأسطورة**، طبعة الرياض، 1982، ص 44.

132) البيتان هما : "إذ تستبيك بأصلتي ناعم عذب مقبله لذيذ المطعم .

و"دار لآنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المتبسم"؛

وكيف تكون غضيضة الطرف وخجولة وطوع العناق في الوقت نفسه!

133) ديوان **عنترة**، دار الجيل، ص40.

134) أمين، مُحَمَّد فوزي، **عنترة بن شداد العبسي**، مرجع سابق ، ص 51-55.

135) ديوان **عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص 55.

136) مولوي، **ديوان عنترة**، مرجع سابق، ص 210.

137) القيرواني، ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، مصدر سابق، ج1، ص 95.

138) شعراوي، ناهد، **عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة**، مرجع سابق، ص 109.

139) طبانة، بدوي، **معلقات العرب**، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1958، ص 184.

140) عزام، مُحَمَّد: **اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2008م، ص37.

141) الفدن: القصر، والمتلوم: المتمكث، فيقول لأقضي حاجتي التي تلوّمت لها، أي تمكّثت وعنى بالمتلوم نفسه، ويقول الرجل لصاحبه: تلوّم عليَّ، أي تحبسَّ وتمكَّثْ.

142) تحلُّ: تنزل، وحلَّ يحلُّ فهو حالُ، والحزن والصمّان: موضعان، والمتلثم: موضع: يُريدُ أنها بعدت عنه، وشطَّ مزارها عنه، لأن الجوَّ الذي هي فيه قد بعد عن هذه المواضع، انظر: شرح البطليوسي، ص15.

143) انظر: البطليوسي، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، مرجع سابق، ص14.

144) الأنباري، **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، مرجع سابق، ص110.

145) ديوان **عنترة**، دار الجيل، مرجع سابق، ص173.

146) انظر: التبريزي، أبو زكريا يحي بن علي بن مُحَّد بن الحسين، **شرح القصائد العشر**، ت: مُحَّد محي الدين عبد الحميد، مكتبة مُحَّد علي صبيح، القاهرة، ص320.

147) حُيِّيت: من التحية، الطلل: ما شخص من آثار الدار من أثفية أو نؤى ومن غير ذلك، و"الرسم" ما كان له اثر ولا شخص له، تقادم عهده: أي قدم العهد به وطال، وأقوى: خلا من أهله.

148) انظر: **المعجم الوسيط**، دار عمران: ج2، ص1011.

149) انظر: أمين، مُحَّد فوزي، **عنترة بن شداد العبسي**، مرجع سابق، ص50.

150) روى ابو عبيدة هذا البيت كالتالي:

شطت مزار العاشقين، فأصبحتْ عَسِراً عليَّ طلابُها ابنةُ مَخْرَم

والزائرون: الأعداء، كأنهم يزأرون كما يزأر الأسد، ومعنى شطت على رواية أبي عبيدة أي جاوزت، ومخرم: اسم رجل، وقيل اسمه مخرمة، ثم رخم في غير النداء .

151) انظر: أمين، مُحَّد فوزي، **عنترة بن شداد العبسي**، مرجع سابق، ص 55.

152) انظر: التبريزي، **شرح القصائد العشر**، مصدر سابق، ص 324.

153) انظر: الطائي، حبيب بن أوس، **حماسة أبي تمام**، مطبعة صبيح، 1955، ص 38.

154) انظر: قميئة، عمرو: **ديوان عمرو بن قميئة**، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، 1965، ص 89.

155) انظر: بن يعفر، الأسود، **ديوان الأسود بن يعفر**، صنعة نوري حمودي القيسي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص26.

156) انظر: ازمعت الفرق: عزمت على الفراق، الركاب: الإبل و "زُمَّتْ" مثل، يريد أمراً فُرغ منه بليل.

157) انظر: راعني: افزعني، الخمخم: واحدتها خمخمة وهو آخر ما يبس من النبت، وروى أبو جعفر: "حبّ الحمحم" بالحاء غير معجمة، وقال: هو آخر ما يبس من النبت، والحمولة الأبل التي أطاقت أن يُحمل عليها.

158) انظر: تأويل البيت في الحاشية السابقة رقم (67) وقال يعقوب ابن السكيت: يروى خليَّة، والخلية: الناقة الخالية بلا حوار وأن تعطف ثلاثُ نوق أو اثنتان على حوار واحد لأنَّهم لو لم يعطفوها على ولد لم تدر، الخوافي: الريش دون الريشات العشر من مقدّم الجناح، والأسحم: الأسود.

159) انظر:عبد الرحمن، عفيف، **الشعر وأيام العرب**، مرجع سابق، ص498.

160) ديوان عنترة: ص23.

161) الدحرضان: ماءان يقال لاحدهما دُحرض وللآخر وسيع، فلما جمعهما غلَّبَ أحد الاسمين، زوراء: مائلة ومنحرفة، الديلم: الاعداء أو السودان.

162) انظر: البطليوسي، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، مرجع سابق، ص29، واللسان (حرض)، ج7، ص149.

163) انظر: الأودي، الأفوه، **ديوان الأفوة الأودي**، شرح وتحقيق: مُحَمَّد التونجي، دار صادر، بيروت، 1998، ط1، ص63.

164) انظر: ابن حزم، أبو مُحَمَّد علي بن أحمد، **جمهرة أنساب العرب**، لجنة دار الكتب العلمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص 411.

165) انظر: الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، **صفة جزيرة العرب**، مطبعة السعادة، القاهرة، 1953، ص185.

166) انظر: جرادة، مُحَمَّد، **تاريخ الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور**، دار الفارابي، بيروت، 1977، ص27.

167) انظر: الأودي، الأفوه، **ديوان الأفوه الأودي**، مصدر سابق، ص26-27.

168) انظر: الأصفهانين أبو الفرج، **الأغاني**، مصدر سابق، ج11، ص43. والإكليل ج1، ص220.

169) الفرج، مُحَمَّد حسين، **شعر وشعراء اليمن في الجاهلية**، وزارة الثقافة والسياحة بصنعاء، 2004، ص99.

170) ديوان **عنترة**، دار الجيل، ص40.

171) ابن الفارض، أبو حفص عمر بن علي، **ديوان ابن الفارض**، المكتبة الثقافية، بيروت، 2 35.

172) ديوان **الأعشى**، دار الجيل، مرجع سابق، ص 131.

173) ابن منظور، **اللسان**، مادة (دلم).

174) ديوان **عنترة**، دار الجيل/ مرجع سابق، ص86.

175) العلوي، ابن طباطبا، **عيَّار الشعر**، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص17.

176) الصفدي وحاوي، مطاع وإيليا، **موسوعة الشعر العربي**، مرجع سابق، ج1، ص521-522.